Wahas
Publishing House

سلسلة روايات الجيب

خيط من شعاع الشمس

أ - ١٣٠
A - 130

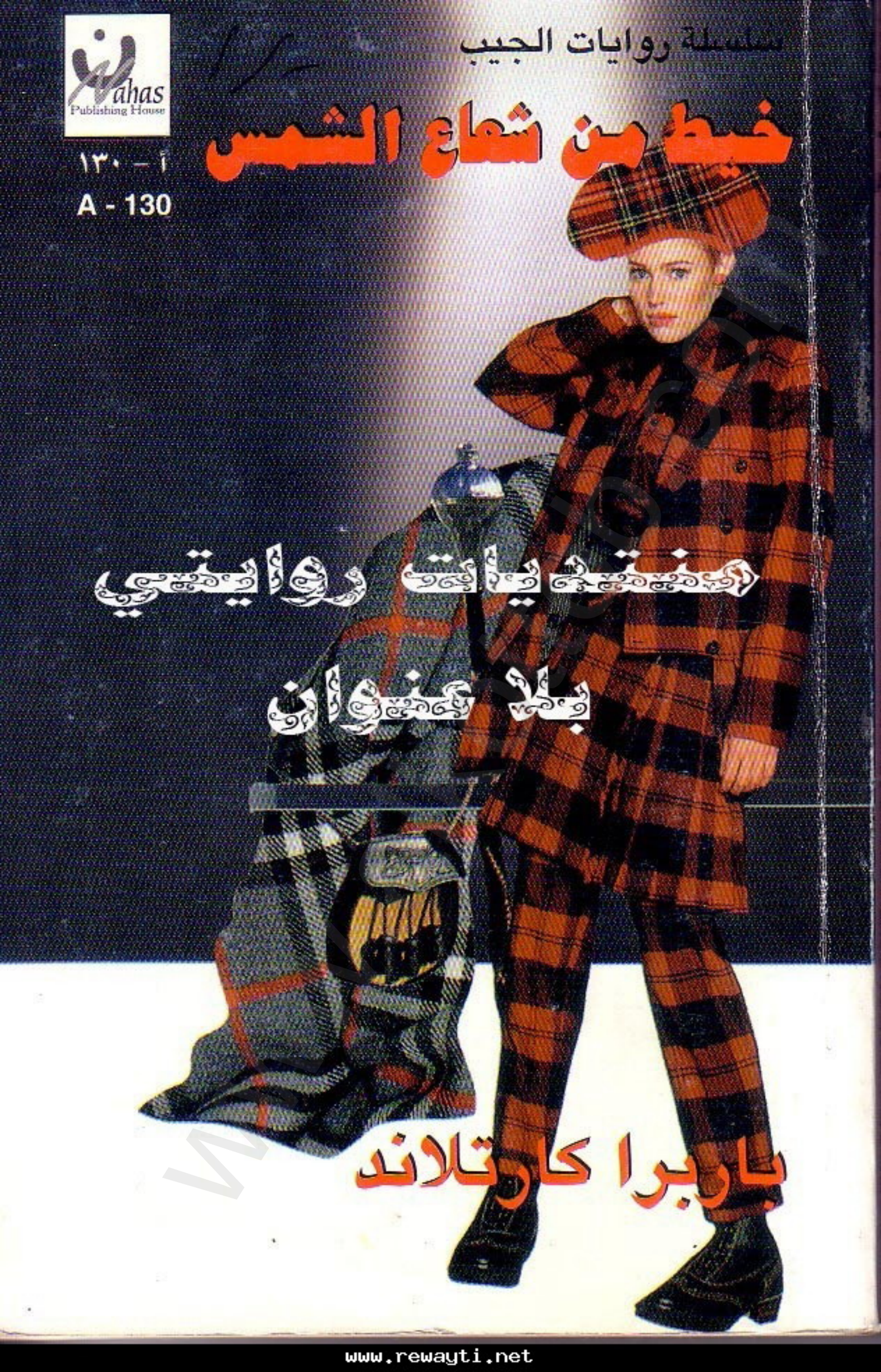

منتديات روايتي

بلا عنوان

باربرا كارتلاند

www.rewayti.net

خيط من شعاع الشمس

تملك الأرق جيونا تلك الليلة لأنها كانت قد شعرت، عندما قال لها الدوق تصبحين على خير، بأن ثمة ما يزعجه.

ساءلت نفسها، ما الذي ازعجه...؟ ماذا تراني فعلت...؟ ثم اخذت تسترجع في ذهنها ما حدث.

لقد حيا الدوق، في ذلك الحين، جدته ببرود ثم اتجه نحو الباب، ولم يتكلم إلى جيونا. قالت له بكآبة: «عمت مساء... يا سيدي الدوق.»

لم ينظر اليها، كل ما فعله انه اجاب: «تصبحين على خير.» ثم استقل عربته، فشعرت وكأنه اخذ معه قلبها، ولم تعترف لنفسها بأنها تحب الدوق الا بعد ساعات جلست فيها في ظلام غرفتها إلى ان زحفت خيوط الفجر الفضية نحو السماء، عند ذلك فقط غلبها النوم وكلمة احبك على شفتيها.

www.rewayti.net

الفصل الأول

١٨١٩

تملكت الدهشة رئيس خدم منزل الفرستود القائم في ساحة غروسفينور، وهو يرى الفيسكونت فروم يترجل من عربته المكشوفة.

ولم تكن دهشته بسبب مظهره المفرط في الأناقة والتألق، فقد كان هذا مألوفاً لديه، إذ كان يعلم مبلغ طموح الفيسكونت للقب ملك الأناقة. في المجتمع الارستقراطي.

ولكن دهشته كانت لظهور الفيسكونت ابن الواحدة والعشرين هذا والذي هو تحت وصاية الدوق ألفرستود، لظهوره في هذا الوقت المبكر من الصباح.

ذلك أن رئيس الخدم كان يعلم جيداً أن الفيسكونت كان كغيره من ذوي الأناقة البالغة، كان يستيقظ من نومه متأخراً كل صباح ليمضي بعد ذلك ساعتين على الأقل يجهز نفسه لمواجهة مجتمع النقاد.

ولكن ها هوذا الفيسكونت يصعد الدرجات نحوه والساعة لم تكد تبلغ التاسعة صباحاً.

وبادره بارو قائلاً: «صباح الخير، يا سيدي. هل جئت لمقابلة سيدي الدوق؟»

www.rewayti.net

سأله الفيسكونت بقلق: «أتراني تأخرت؟»

«كلا يا سيدي. فقد عاد سيادته من نزهته منذ عشر دقائق وستجده في غرفة الافطار.»

ولم ينتظر الفيسكونت أكثر من ذلك، بل سار مجتازاً الردهة الرخامية الرائعة والمهيبة نحو غرفة الافطار التي تشرف على الحديقة الخلفية للمنزل.

وكما توقع، كان الدوق ألفرستود جالساً إلى مائدة الافطار، وصحيفة التايمس مفتوحة أمامه، بينما كان يتناول فطوراً دسماً مع القهوة.

وعندما دخل الفيسكونت الغرفة، رفع الدوق إليه عينين احتلت فيهما نفس الدهشة التي كانت قد احتلت عيني رئيس خدمه من قبل.

قال الفيسكونت: «صباح الخير يا ابن العم فاليريان.»

«ما هذا، يا لوسيان، ما الذي أحضرك في مثل هذه الساعة المبكرة؟ أتراك تورطت في مبارزة ما، جعلك تستيقظ مبكراً بهذا الشكل؟»

أجاب لوسيان بحدة: «كلا. كلا أبداً.» ولكنه ما لبث أن أدرك أن الوصي عليه كان يمزح معه ليس إلا.

فتقدم نحو المائدة حيث جلس إلى الطرف الآخر منها، ثم ساد صمت أدرك الدوق منه بأن الفيسكونت متوتر.

سأله بعد قليل:

«إذا كان الأمر لا يتعلق بأية مبارزة، ما الذي يزعجك إذن؟»

ساد الصمت مرة أخرى، اندفع بعدها الفيسكونت يقول وكأن الكلمات تتفجر من بين شفتيه: «إنني عاشق.»

هتف الدوق وقد توقف عن الطعام: «مرة أخرى؟»

أجاب الفيسكونت: «هذه المرة تختلف عن سابقاتها. إنني أعرف أنني ظننت نفسي عاشقاً من قبل وكان ذلك لعدة مرات، ولكن هذه المرة من نوع آخر تماماً.»

سأله الدوق: «تختلف بماذا؟»

نظر الفيسكونت اليه متوجساً من نبرة صوته لم يكن ثمة شك في وسامة الدوق البالغة، ولكنه كان أيضاً بالغ المهابة بحيث لم يكن في المجتمع الارستقراطي من لا يعامل الدوق ألفرستود باحترام.

حتى الأمير كان معروفاً عنه الأخذ برأي الدوق ونادراً ما كان يخالفه بشيء يقوله.

قال الفيسكونت بعد لحظة: «أريد أن أتزوج كلاريبيل. ولكنك جعلتني أعدك بألا أعرض الزواج على أي امرأة قبل أن تأذن لي بذلك.»

فقال الدوق بجفاء: «هذا حذر حكيم جداً من ناحيتي، فأنا لا أعتقد أنك كنت ستسعد في حياتك لو أنني كنت سمحت لك بالزواج من ابنة دان تلك التي أعجبتك عندما كنت ما تزال طالباً في أكسفورد. أو مغنية الأوبرا تلك التي كنت قد قلت لي عنها في ذلك الحين أنها حب حياتك الوحيد.»

أجاب لوسيان بسرعة: «كنت في ذلك الحين صغير السن جداً.»

«ولكنك الآن لست كبير السن.»

ردّ عليه الفيسكونت بحدة: «إنني كبير بما فيه الكفاية لكي أعرف نفسي جيداً. وأنا أعرف أنني سأكون سعيداً للغاية مع كلاريبيل. إنها، على الأقل، لا يمكنك وصفها بأنها

www.rewayti.net

من العامة كما سبق ووصفت تينك السيدتين اللتين أحببتهما من قبل.»

رفع الدوق حاجبيه وقال: «سيدتين؟» وكان في صوته نبرة مهينة.

قال الفيسكونت بخشونة: «قل عنهما ما يحلو لك، ولكنهما لم تكونا بالسيئتين كما كنت قلت لي عنهما حينذاك. ولكن ليس بإمكانك هذه المرة أن تقطع عني أموالي كما كنت قد هددتني في ذلك الحين، وذلك فيما لو تزوجت كلاريبيل، لأن لديها ثروة كبيرة خاصة بها.»

فقال الدوق: «هذا شيء مفيد في كل الاحوال. ولكن حدثني أكثر عن فاتنتك الجديدة هذه التي أسرت قلبك.»

وإذ كان الفيسكونت بحاجة إلى تشجيع، فقد انحنى إلى الأمام بحماس واضعاً مرفقيه على المائدة وهو يقول: «إنها رائعة الجمال... رائعة الجمال إلى حد لا يمكن تصوره، ومع هذا فهي تحبني... هل تصدق هذا؟ إنها تحبني لأجل ذاتي.»

كان والد الفيسكونت ابن عم له بعيد القرابة، وكان قد قتل في معركة ووترلو، فكانت مفاجأة غير سارة عندما علم بأنه هو أي الدوق، قد أصبح وصياً لابن قريبه ذاك.

وكان يعلم أن الفيسكونت فروم الراحل قد سجل وصيته تلك منذ سنوات عندما كان والده هو ما يزال حياً.

كانت تلك الوصية تقول بأن أي شيء يحدث له أثناء وجوده في جيش ويلنغتون، فإبنه وأي ولد آخر قد ينجبه، إنما يترك في وصاية الدوق ألفرستود.

وغالباً ما كان الدوق يفكر في أن المحامين الذين سجلوا

وصية ابن عمه ذاك، قد أغفلوا اهمالاً منهم، أن يسجلوا إلى جانب اسم والده بأنه الدوق الثالث.

ولو حدث ذلك، لكان كفيلا بأن يعفيه من مسؤولية متعبة نحو أحد أفراد أسرته.

ولكنه، حيث أنه الوصي القانوني الآن على لوسيان، قد صمم على أن يمنع الفتى من الوقوع ضحية زواج وخيم العاقبة.

ولم يكن ثمة شك في أن كل فتاة سبق وأسرت قلب لوسيان كانت مرفوضة اجتماعياً.

ولم يكن هناك فقط تلك السيدتان اللتان سبق ذكرهما، وإنما تذكر الدوق أرملة طموحة اجتماعياً وأكبر منه بسنوات، كانت ترغب في أن تصبح زوجة فيسكونت.

وأيضاً كان هنالك سيدة اخرى حاولت أن تثير مشاكل كبيرة عن قلبها المحطم والذي سرعان ما التأمت جراحه، لحسن الحظ حالما تلقت عدداً كبيراً من الجنيهات الذهبية.

قال الدوق له ساخراً: «إن مديحك لتلك الفتاة مؤثر جداً في النفس، ولكنك حتى الآن نسيت أن تخبرني باسمها.»

أجاب: «إنها كلاريبيل ستامفورد.»

عقد الدوق حاجبيه في محاولة ليتذكر أين عساه يكون قد سمع بهذا الاسم من قبل.

ثم قال بعد لحظة: «ستامفورد؟ لا أظنك تعني أنها ابنة السيد جارفيس ستامفورد صاحب خيول السباق المعروف؟»

أجاب الفيسكونت: «هذا صحيح، لقد كنت متأكداً من انك

www.rewayti.net

ستتذكره. فهو يملك بعض الجياد الممتازة، كما واحدى جياده تلك كان قد هزم جوادك السنة الماضية في كمبريدشاير.»

فقال الدوق: «كان فيكتوريوس متوعكاً ذلك النهار.» كان يدافع عن جواده وما لبث أن ضحك وأضاف يقول: «إنني أذكر الآن أن ستامفورد كان مسروراً بشكل خاص لهزيمتي تلك.»

«يجب ألا يجعلك هذا تتحامل على ابنته.»

قال الدوق محتجاً: «إنني لم أقل بانني اتحامل عليها.»

قال عندها الفيسكونت بلهفة: «إذن، فإنك ستسمح لي بالزواج منها.»

سكت الدوق.

كان يفكر في أن هذا الفتى ابن الوحدة والعشرين، ما زال في رأيه حديث السن، كما أنه في مثل براءة وصراحة تلميذ مدرسة.

أما في رأي بعض الناس، فهو فتى عابث بالغ الطيش.

ولكن هذا لا يعني أن رأي الدوق فيه كان سيئاً، ولكن هذا ما كان منتظراً من فتى لا يمكنه تصريف طاقته وحيويته في الحرب، وذلك بصرف النظر عما يتبع ذلك من اضرار بالآخرين.

كان الدوق واثقاً، بينه وبين نفسه، من أن كلاريبيل تلك، من المستبعد ان تثبت هذه الفتاة الجديدة بأنها الزوجة المناسبة اكثر من سابقاتها ممن كان قد افتتن بهن.

وبينما أخذ الدوق يمعن النظر في هذا الأمر، بصمت، كان لوسيان يراقب وجهه بقلق، وما لبث أن قال بصبر فارغ: «إذا

كنت سترفض أن تمنحني الاذن بالزواج من كلاريبيل، يا ابن العم فاليريان، فإنني سأقنعها بالهرب معي وتبّا لما قد ينتج عن ذلك.»

قال الدوق بحدة: «إذا كانت من النوع الذي يناسبك الزواج منه، ومن النوع الذي لا يعني سوى الموافقة عليه، فهي سترفض حتما القبول بتصرف كهذا.»

سكت لحظة ثم أضاف يقول: «لا يوجد فتاة محتشمة فاضلة لديها معرفة بالسلوك الحسن، تفكر لحظة في أن تتزوج بشكل سري.»

عبس وهو يقول باستياء: «كنت اظن، بعد أن بلغت الواحدة والعشرين، بأنني قد أصبحت رجلاً وليس دمية بين يديك.»

لوى الدوق فمه مشمئزاً، وقال: «ها إنك تستعمل المجاز في التعبير، يا عزيزي لوسيان. ولكنني فهمت ما تعنيه.»

فقال الفيسكونت متذمراً: «إنك تعاملني وكأنني شخص غير جدير بالاهتمام.»

أجاب الدوق: «غريب منك هذا التفكير. فأنا لا أفكر إلا في مصلحتك وليس بأي شيء آخر. ولكنني أعترف بأن الآنسة ستامفورد تبدو لي أفضل من سابقاتها اللاتي فكرت في الزواج منهن.»

لمعت عيني الفيسكونت، وقال: «إذن، فستفكر في طلبي هذا؟»

أجاب الدوق: «هذا مؤكد.»

عاد الفيسكونت ينحني على المائدة بحماس قائلاً:

www.rewayti.net

«الأفضل أن تتعرف على كلاريبيل، عند ذلك تدرك سبب رغبتي في الزواج منها.»

قال الدوق: «كنت على وشك أن أقترح ذلك. ودوماً كان رأيي أن أرى الناس في بيوتهم وبيئتهم.»

سأله الفيسكونت متردداً: «أتعني...؟»

«اقترح أن تطلب من السيد جارفيس أن يدعونا، أنت وأنا، إلى بيته لنمضي معه يوماً أو نحوه.»

«في الريف؟»

أجاب الدوق بحزم: «في الريف حتماً.»

نظر إليه الفيسكونت مشككاً، ثم قال: «لا أفهم تماماً، يا ابن العم، ما الذي يجعل لهذا الأمر أهمية في نظرك.»

أجاب الدوق: «وهل علي أن أفسر ذلك؟ كنت أظن ان غرضي واضحاً.»

«إن السيد جارفيس يملك بيتاً في لندن وكلاريبيل تستمتع بحضور الحفلات التي تقام كثيراً في الوقت الحالي.»

أجاب الدوق: «إنني واثق من ذلك. وحيث أنك تستمتع مثلها بالحفلات، فلا شك أنها تعتبرك مرافقاً يدعو إلى الاعجاب.»

وبدا أن الدوق لم يقصد المدح بكلامه هذا، ما جعل الفيسكونت يرتبك قليلاً. فقال: «إفرض أنني طلبت من السيد جارفيس أن تكون الدعوة إلى منزله في الريف، فرفض هو ذلك، ماذا افعل عندها؟»

قال الدوق بكبرياء: «أظنك ستجد السيد جارفيس متحمساً جداً لاستضافتنا. إما إذا فضل الانتظار قبل أن

يوجه هذه الدعوة، وذلك لسبب ما، فما عليك، يا عزيزي لوسيان، إلا أن تنتظر أنت أيضاً.»

كان في لهجة الدوق ما أنبأ الفيسكونت بأن لا فائدة من استمرار البحث في هذا الموضوع.

لكنه كان قلقاً من أن ترفض كلاريبيل الذهاب الى الريف، وهي التي تفضل العيش في لندن.

كان ما يفكر فيه جلياً تماماً للدوق، ولكن هذا الأخير تغافل عن ذلك وعاد إلى صحيفته يطالعها ويقلّب صفحاتها بينما يتناول قهوته، مظهراً بجلاء عدم رغبته في مواصلة الحديث.

سكت الفيسكونت لعدة دقائق قال بعدها متردداً: «إنني أشكرك، يا ابن العم فاليريان، لعدم رفضك بحث الموضوع. وأنا واثق من أنك عندما تتعرف إلى كلاريبيل ستتفهم شعوري نحوها.»

فأجاب الدوق: «هذا مؤكد.»

أنهى قهوته ووضع الفنجان على المائدة ثم وقف، وقال: «لدي الآن الكثير من الاعمال. أما ما يقلقني فهو ما الذي ستشغل نفسك به إلى أن يستيقظ أصدقاؤك من النوم، ولا أظن ذلك سيكون قبل الظهر، حيث يكونون على استعداد لمقابلتك.»

قال الفيسكونت مغتاظاً: «إنك تسخر مني.»

أجاب الدوق: «كلا في الحقيقة. لأنني لا أرى من المضحك أنك لا تزاول ولو القليل من الرياضة سوى في الحفلات. والهواء النقي الوحيد الذي تستنشقه هو فقط عندما تكون في طريقك من البيت وإلى المطعم.»

www.rewayti.net

أجاب الفيسكونت بحدة: «هذا غير صحيح. فقد ذهبت أمس إلى مطحنة في ويمبلدن، وفي الاسبوع الماضي، أو ربما الاسبوع الذي قبله، حضرت سباقاً للخيل في ايبزوم.»

قال الدوق بصبر: «الذي أريد قوله هو ان عليك الذهاب للنزهة على صهوة الحصان كل صباح، أو فليكن فيما بعد، أثناء النهار إذا شئت. وقد أخبرتك أن جيادي هي تحت تصرفك.»

أجاب الفيسكونت: «في الحقيقة، ليس لدي وقت لذلك.»

فتابع الدوق يقول وكأنه لم يسمع ما قاله: «أو إذا لم تشأ أن تتنزه، فعدة أشواط في حلبة كلية جاكسون للملاكمة. قد تفي بالغرض قد تحسن من طاقتك وتزيد من نشاطك دون شك.»

هتف الفيسكونت بحرارة: «ولكنني كنت أكره الملاكمة في كلية إيتون. فأنا لا أحب أن يضربني أحد.»

ثم أضاف وهو ينظر إلى الدوق: «كل هذا حسن بالنسبة إليك، يا ابن العم فاليريان، لأنك رياضي بطبيعتك. كل شخص يقول هذا، ولهذا أنت متفوق في الملاكمة والمبارزة بالسيف، على أكثر الناس.»

قال الدوق: «إنني متفوق، فقط لأنني تكبدت جهداً بالغاً في تعلم الرياضتين اللتين ذكرتهما. ثم إنني امارس الفروسية لأنني أحبها، هذا إلى أن التمارين اليومية تبقي صحة المرء في حالة جيدة.»

قال الفيسكونت بخشونة: «إنني أفضل قيادة العربات.»

«إنها رياضة كسولة، ولكن هناك دوماً، بالطبع، متفرجين يعجبون بمهارتك في الامساك باللجام.»

فقال الفيسكونت بمرارة: «ها أنك تحاول السخرية مني مرة اخرى.»

تنهد الدوق ثم قال بلهجة مختلفة تماماً: «كلا، إنما أنا في الواقع، يا لوسيان، أفكر فيك وأحاول أن أساعدك بكل جهدي لتصبح ذلك الرجل الذي كان والدك يريدك أن تكونه. ربما تراني قد أفسدت الأمور، ولكن عذري هو أنني لم أكن قد تدربت على القيام بدور الوصي على أحد.»

بددت لهجته البعيدة عن السخرية تلك النظرة العابسة المستاءة من عيني الفيسكونت، وقال: «إنني لست جاحداً، يا ابن العم، للطريقة التي عاملتني بها منذ وفاة والدي. فقد كنت كريماً جداً إزاء متطلباتي، ما عدا ما يتعلق بالزواج.»

أجاب الدوق: «إذن، دعنا نأمل أن أتمكن هذه المرة من منحك موافقتي القلبية على الزواج الذي اخترته هذه المرة.»

فقال الفيسكونت بحماس: «ستفعل. إنني واثق من ذلك. انتظر وسترى كم هي جميلة كلاريبيل.»

ابتسم بخجل وهو يضيف قائلاً: «إن ما أخشاه هو أنها عندما تقابلك قد تفضلك علي. لقد قالت لي انها معجبة بك عندما رأتك عن بعد.»

قال الدوق بجفاء: «تشرفنا... ولكن الشيء الذي ليس لك أن تقلق بشأنه، هو أنني قد أسلبك كلاريبيل أو أية فتاة أخرى صغيرة السن. أولاً، لأنني أرى الفتيات الصغيرات

www.rewayti.net

مملات للغاية، وثانياً، لأنني لا أنوي الزواج قبل مرور بضع سنوات، مهما كان الأمر.»

قال الفيسكونت: «ولكن عليك أن تنجب وريثاً للدوقية عاجلاً أم آجلاً.»

أجاب الدوق: «ما زال ثمة وقت لذلك. وعندما أجد نفسي وقد ابتدأت في الخرف، عند ذلك سأعثر على امرأة اتزوجها وتنجب لي ابناً يسندني في آخرتي.»

ضحك الفيسكونت وقال: «هذا مستحيل. إن شهرتك يا ابن العم، لا يمكن أن تتأثر.»

قطب الدوق جبينه. فقد كان ما قاله الفيسكونت منتهى قلة الذوق في رأيه.

وكما لو أن هذا الأخير أحس بأنه تجرأ على الوصي عليه بمزاحه هذا، قال بسرعة: «إذا كنت مشغولاً، يا ابن العم، فسأتركك. إن عربتي في الخارج.»

فهتف الدوق: «أهي عربتك الجديدة؟ لقد رأيت فاتورة ثمنها أمس. لا بد أنك قد صممت على التظاهر بالثراء بطرق شتى.»

قال الفيسكونت: «إن صانعي العربات على جانب كبير من الاحتيال، ولكنك في الحقيقة، لا يمكنك أن تتصور كم انها عربة فاخرة وسريعة في الوقت نفسه. وإذا شئت أن تأتي معي لتراها، فستعلم أن ما أقوله هو الحقيقة.»

قال الدوق: «سأؤجل ذلك إلى يوم آخر، أما الآن فإن ميدليتون في انتظاري ولدينا عمل كثير علينا القيام به قبل أن أذهب إلى قصر الأمير لتناول طعام الغداء.»

قال الفيسكونت: «إنني ذاهب، وسأرى السيد جارفيس

هذا النهار وأحاول اقناعه ليرتب موعداً لزيارتنا في منزله الريفي أبراج ستامفورد.»

أجاب الدوق: «إنني في انتظار دعوته. إلى اللقاء يا لوسيان.»

لم ينتظر جوابه، بل خرج مسرعاً من غرفة الافطار متجهاً نحو غرفة المكتبة حيث يعلم أن سكرتيره ينتظره مع وكيل أملاكه.

نظر إليه الفيسكونت وهو يبتعد، مفكراً في أن هذه المقابلة، اجمالاً لم تكن مخيفة كما كان يتصور، كما أنه كان يشعر بالغيرة، دون وعي منه تقريباً، لمزاولة الدوق الرياضة بانتظام.

بدا له وكأنه ينظر إلى حصان قد تجاوز بسرعته نقطة الفوز، وساورته، للحظة واحدة، فكرة اطاعة الوصي عليه، بالنسبة إلى القيام بالتمارين الرياضية.

ولكنه عاد ففكر في أنه يعرف النتيجة مسبقاً وهي انه من المستحيل عليه أن يتفوق في الرياضة، لذا من الأفضل أن يمضي وقته عند الخياط وفي قاعات الحفلات.

اجتاز الردهة إلى حيث كان بارو رئيس الخدم في انتظاره ليناوله قبعته وقفازي الركوب.

وسأله بلهجة الخادم الذي يعرف مخدومه منذ الطفولة: «هل كل شيء على ما يرام، يا سيد لوسيان؟»

أجاب: «ليس بالسوء الذي كنت أخشاه.»

«انني مسرور لهذا، يا سيد لوسيان.»

«شكراً يا بارو.»

ابتسم له وهو يهبط الدرجات، ثم صعد إلى عربته

www.rewayti.net

المكشوفة، والتي كان يتباهى بأنها أجمل من أية عربة أخرى في الحدائق أو في أي مكان آخر في لندن.

كانت قد كلفته الكثير من المال، ولكن كان في إمكانه دفع المبلغ والعيب الوحيد في ذلك هو انه من المفروض قبل دفع الفواتير، أن يراها الوصي عليه ويوافق عليها.

وسأل الفيسكونت نفسه للمرة الألف، عما دعا والده إلى أن يحبس عنه ثروته إلى حين بلوغه الخامسة والعشرين.

فكر بحدة في أن أكثر الرجال يستلمون ثرواتهم عندما يبلغون سن الرشد، ما عداه هو! وأن عليه أن ينتظر أربع سنوات أخرى. ووجد ذلك غاية في الازعاج.

ولكن عندما تذكر أن كلاريبيل لا شك في انتظار سماع نتيجة زيارته هذه، نسي كل شيء آخر. وتمنى لو كان بإمكانه أن يذهب لتوه إليها ويخبرها بما قاله الدوق له، ولكنه كان يعلم أنه ليس بالامكان رؤيتها قبل وقت الغداء، ومن الأفضل ان يقوم بزيارتها في فترة بعد الظهر.

لكنه حدث نفسه، انه ليس بإمكانه الانتظار إلى ذلك الحين، وسيكون في تسكعه هذا عذاب.

لم يكن غريباً أن يقع في حب واحدة من أجمل الفتيات اللاتي ظهرن في المجتمع اللندني.

كان يرى أنها لا تمتاز فقط بشعر هو أشبه بلون أشعة الشمس، وبعينين بزرقة السماء، ولكن ايضاً برشاقة في حركاتها وباعتداد في نفسها يميزانها عن بقية فتيات جيلها المتقدمات حديثاً مثلها، إلى المجتمع.

وربما كانت تلك الصفتان فيها نتيجة جمالها غير العادي ذاك، والذي تفتقر إليه تلك الفتيات.

أثناء سيره في العربة، أخذ يفكر في أن أمواله وأمواله ستسمح لهما بأن يعيشا برفاهية وأبهة حقيقية. وسيصبح بإمكانه أن يعطي كلاريبيل كل ما تطلبه وتريده، هذا إلى امتلاك جياد للركوب تكون مصدر غيرة كل شخص في الحي.

* * *

جلس الدوق خلف مكتبه يستمع إلى سكرتيره السيد ميدليتون وهو يشرح بعض المشكلات الطارئة في مزارع ألفرستود، بينما أفكاره تدور حول لوسيان.

فقد شعر، كعادته في كثير من الأحيان، بالقلق على الفتى.

كان مقتنعاً بأنه يرافق مجموعة من الفتية الطائشين، ولكنه أدرك أنه ربما يبالغ في انتقاده هذا له لأنه أكبر سناً منه بكثير.

وقال يحدث نفسه بأنه لا يعتقد أنه كان بالغ الحكمة عندما كان في مثل سن لوسيان.

لكنه كان حينذاك في الجيش، ما فتح أمامه مجال التفوق بشكل لا يتاح لغيره من فتيان هذه الأيام.

وعندما أنهى السيد ميدليتون محاضرته المسهبة حول ضرورة الانتهاء من إنشاء فناء جديد وطريق يؤدي إليه، قال الدوق: «إنني قلق بالنسبة إلى السيد لوسيان. ما الذي سمعت عنه مؤخراً؟»

وكان السيد ميدليتون قد أمضى في خدمة الدوق مدة طويلة بحيث أن لوسيان لم يكن يذكر بينهما بلقبه الفيسكونت.

www.rewayti.net

سكت السيد ميدليتون لحظة قبل أن يجيب قائلاً: «لا أظن أن السيد لوسيان قد فعل أي شيء غير لائق في الأشهر الأخيرة، ما عدا القصص المعتادة عنه وعن أصدقائه ومشاكساتهم في الحفلات.»

سكت لحظة ليرى إن كان الدوق يستمع إليه، ثم تابع يقول: «لقد طردوا ذات ليلة من احدى المطاعم المحترمة لتدخلهم في العمل، وعدا مبارزة خطرة قامت بين اثنين من الفتيان كان هو مساعداً لأحدهما، عدا ذلك لم يحدث اي شيء يهمك يا سيدي.»

«أظنك كنت تعلم، قبل علمي بذلك، أن السيد لوسيان يرغب في الزواج.»

«من الآنسة كلاريبيل ستامفورد؟»

«نعم. لقد أدركت بأنك أول من يعلم، ولكنك لم تقدم لي تقريراً بذلك.»

أجاب السيد ميدليتون: «لم أر الأمر من الجدية بحيث يستلزم اقلاق سيادتك، ذلك أن الآنسة ستامفورد لديها الكثير من المعجبين.»

«هل هي جميلة جداً؟»

«دون شك. وقد أطلق عليها لقب جميلة المتقدمات للمجتمع هذا الفصل.»

تمتم الدوق ساخراً: «ملكة جمال.»

قال السيد ميدليتون: «ليس بعد، ولكنها قد تكتسب هذا اللقب بكل سهولة في أي وقت من الأوقات.»

نظر إليه الدوق متهكماً بينما تابع السكرتير يقول: «لا بد وأنك قابلت مرة السيد جرافيس في ميدان السباق.»

فقال الدوق دون اهتمام: «أعتقد أنه عضو في نادي الجوكي. ولكنني لا أستطيع التذكر، في الواقع، ما إذا كنا قد تعارفنا. ما الذي تعرفه عنه؟»

«القليل جداً، يا سيدي الدوق، ولكن بإمكاني معرفة ما تريده عنه بكل سهولة.»

قال الدوق آمراً: «إفعل ذلك. لدي شعور، وقد أكون مخطئاً، بأن ثمة فضيحة التصقت باسمه ذات يوم. أم لعلها شائعات عن أمور غير أخلاقية؟ إنها مجرد تخمينات مني ليس إلا.»

«دع ذلك لي، يا سيدي الدوق. وفي نفس الوقت أريد أن أكتشف سبب تفضيل الآنسة ستامفورد للفيسكونت على غيره، بينما آخر مرة سمعت باسمها كان مقترناً باسم شخص أكثر أهمية.»

حدق الدوق في سكرتيره متأملاً، ثم قال ببطء: «هل تعني، يا ميدليتون، أن الآنسة ستامفورد أو ربما والدها، يطمحان إلى مركز اجتماعي؟»

ابتسم السيد ميدليتون، وقال: «طبعاً، ككل السيدات الشابات. وكما تعلم سيادتك جيداً، كلما كان اللقب أرفع، كلما كان ذلك أفضل.»

لم تكن مطاردة النساء للدوق بسبب مركزه فقط، بل لأنه أيضاً رجل بالغ الجاذبية، كما أن غطرسته وعدم مبالاته بهن كان يمثل تحدياً للنساء لا يمكن مقاومته.

كان الدوق يعتبر أن التحدث عن أية امرأة يعجب بها، ولو مع أخلص أصدقائه، ما هو إلا دناءة في الطباع.

وقد أصبح هذا معروفاً عنه، مما أضاف إلى الجو المميز الذي يحيط به، غموضاً وتساؤلات.

www.rewayti.net

لكن عندما تنسحب جميلة معروفة من المجتمع الراقي فجأة لتقبع في الريف، أو أن تجول في الأنحاء وقد بدت عليها التعاسة وكأنها فقدت عزيزاً، يتكهن انه لا بدّ وتخلى الدوق عن صداقتها.

وكان هذا التعبير، جملة محطم القلوب والتي كان الفيسكونت قد استعمله بشكل غير حكيم أثناء حديثه مع الدوق، كان يهمس به من شخص لآخر.

جمع السيد ميدليتون اوراقه وهو يقول: «سأحاول أن أعرف كل ما يمكنني معرفته، وسأزودك يا سيدي الدوق بكل ما هناك من معلومات عن السيد جارفيس وذلك بأسرع وقت ممكن.»

«أشكرك يا ميدليتون، لقد كنت أعلم ان بإمكاني الاعتماد عليك.»

وقف الدوق من وراء مكتبه حيث كان جالساً منذ ساعتين تقريباً، وقال: «إنني ذاهب الآن إلى قصر الأمير حيث سأكون مرغماً على تناول الطعام الكثير والمتنوع، وهذا شيء أكرهه، لذلك أريد منك أن ترسل احد الخدم إلى معهد جاكسون ليخبره بأنني سأذهب إلى هناك حوالي الساعة الرابعة والنصف وأنني سأكون شاكراً لو تمكنت من القيام بعدة جولات في الملاكمة معه شخصياً.»

ابتسم ميدليتون، وقال: «إنني واثق من أن هذا سيسره، بالرغم مما سمعته من أنك طرحته أرضاً الاسبوع الماضي.»

ضحك الدوق قائلاً:

«ربما كان هذا لأنني كنت محظوظاً على غير عادة، أو أن جاكسون لم يكن حذراً، ولكن هذا في الواقع، كان انجازاً طيباً لي.»

«إنه فعلاً كذلك، يا سيدي الدوق.»

وكان هذا صحيحاً دون شك، ذلك لأن جاكسون كان يعتبر أكبر ملاكم عرفته البلاد.

عندما غادر الدوق غرفة المكتبة، كانت على شفتيه ابتسامة باهتة وكأنه كان يسترجع في رأسه ذكريات مضت.

* * *

كان النهار في آخره عندما عاد السيد جارفيس ستامفورد إلى منزله في حي بارك لين.

وعندما دخل من الباب الذي كان يقف عند عتبته ستة من الخدم رهن اشارته، أسرع إليه سكرتيره، وهو رجل مزعج بعض الشيء إذ كان دوماً يتحدث بشيء من التردد.

«الآنسة كلاريبيل، يا سيدي. تسأل إن كان من الممكن أن تراها حال عودتك إلى المنزل.»

نظر إليه السيد جارفيس بحدة وكأنه اشتبه في أن هناك معنى خاص وراء هذه الرسالة.

ما أن هم بالكلام حتى أدرك بأن الخدم الستة، والذين كان مفروضاً فيهم أن يكونوا بنفس الطول ويرتدون نفس البزة ذات اللونين القرمزي والأسود، أدرك أنهم كانوا ينصتون إليه.

فسأل بسرعة: «أين هي الآنسة كاريبيل؟»

www.rewayti.net

«إنها في غرفة جلوسها الخاصة، يا سيدي.»

فصعد السيد جارفيس على السلم وقدميه تغوصان في السجادة الناعمة الثمينة.

عندما وصل إلى أعلى السلم، وجد نفسه يقف امام لوحة فنية كان قد اشتراها حديثاً من مزاد علني حيث أكدوا له أنها من رسم روبنز.

كان يأكل ألا يكونوا قد خدعوه في البيع حيث دفع مبلغاً باهظاً ثمناً لها وهو يفكر في أن أي شخص آخر كان سيتألم لهذا.

اجتاز الممر الذي كان مزدحماً نوعاً ما بالاثاث، إلى غرفة جلوس كلاريبيل الجميلة جداً والملحقة بغرفة نومها والتي كانت قد زخرفت بحيث تمثل اطاراً ملائماً تماماً لجمال صاحبتها.

فالجدران البيضاء المذهبة،والستائر الزرقاء ثم الرسوم على السقف والتي رسمها فنان ايطالي، كانت كلها تلائم أية امرأة. وعندما قفزت كلاريبيل من على الأريكة واسرعت نحو والدها، بدت له كجوهرة لا تثمن سواء مع هذا الاطار الجميل أو بدونه.

«والدي... كم أنا مسرورة لعودتك.»

سألها بشيء من الخشونة: «ماذا حدث؟»

«لقد قابل لوسيان الدوق، أخيراً تملكته الشجاعة الحقيقة بعد أن انذرته بالابتعاد عنه كما تعلم.»

«وها انك نجحت في ذلك.»

جلس والدها على الاريكة، ثم سألها: «حسناً، ماذا حدث؟»

جذبت كلاريبيل أنفاسها، ثم قالت: «لقد أخبر لوسيان الدوق بأنه يريد أن يتزوجني.»

توترت شفتي السيد جارفيس وكأنه كان يتوقع أن تقول له ابنته بأن الدوق قد رفض.

لكن ابنته سألته: «وماذا تظن أن الدوق قال له.»

«أخبريني.»

«قال له إنه يريد رؤيتي في بيتنا في الريف.»

مضت لحظة لم يتكلم فيها السيد جارفيس، لقد أخذ فقط يحدق في ابنته وكأنه يشك في ما سمع.

ثم قال: «هل قلت إن الدوق يريد أن ينزل ضيفاً علينا في منزلنا أبراج ستامفورد؟»

أومأت كلاريبيل قائلة: «نعم. وأنا واثقة يا والدي من أن ذلك يعني أنه سيمنح موافقته. آه، أليس هذا رائعاً؟ سيكون بإمكاني أن أتزوج قبل نهاية السنة، وبالتالي يمكنني حضور حفلة افتتاح البرلمان بصفتي فيسكونتس.»

«ستكونين أجمل النبيلات هناك، يا حبيبتي.»

«وهذا هو رأيي أنا أيضاً، يا والدي، وعليك أن تشتري لي اكليلاً من الجواهر أكبر من اكليل أية امرأة أخرى.»

فقال: «طبعاً، طبعاً. ولكنني لا استطيع ان أصدق أن الدوق سينزل ضيفاً علينا.»

«لقد دهش لوسيان أيضاً،لأنه أخبرني بأنه من الصعب جداً أن ينزل الدوق ضيفاً عند أحد ما عدا أصدقاءه المقربين امثال الدوق بيلفورد والدوق نورتمبرلاند، ويرفض الألوف غيرهما.»

www.rewayti.net

«علينا إذن ألا ندعه يندم على زيارتنا في منزلنا أبراج ستامفورد.»

«وعلينا أن نتأكد من أنه سيوافق على زواجي من لوسيان.»

«نعم،نعم، طبعاً، ولكنني أظن أن هذا استنتاج سابق لأوانه.»

قال ذلك وهو يفكر في أن كلاريبيل ليست واثقة من ذلك بعد، فقال لها بحدة: «ولماذا لا يوافق على ذلك؟ فأنت لست فقط فائقة الجمال، يا حبيبتي، ولكنك ثرية أيضاً، كما ليس هناك من يستطيع القول بأن أسرة أمك ليست من النبلاء.»

فقالت: «لا أدري ما إذا كان لوسيان قد تذكر أن يخبره عن أمي.»

قال: «إذا كان قد نسي ذلك، فسأقوم انا بذلك، وعندما يصبح الدوق في منزلنا سيكون ملزماً لأن يصغي إلي.»

«طبعاً يا والدي، فارسل إليه الدعوة حالاً. إن لوسيان يقول إن من الخطأ التأخر في ذلك.»

قال السيد جارفيس: «إنني أوافقه في ذلك. فكلما كان الأمر أسرع، كلما كان أفضل. هذا مؤكد.»

كان يتكلم وكأنه يفكر في شيء آخر غير ابنته.

ثم قال لها: «إنني شديد الزهو بك، يا حبيبتي، وهذا ينسينا قليلاً خيبة الأمل تلك التي شعرنا بها من وراء النبيل دورست.»

صرخت كلاريبيل بحنق: «لا أريد أن أفكر فيه مطلقاً بعد الآن. لقد خدعني، وهذا ما لن أصفح عنه أبداً.»

قال: «ولا أنا. وسآخذ بثأرك من ذلك الشاب عاجلاً أم آجلاً، ما يجعله يندم على تصرفه ذاك نحوك.»

وقفت كلاريبيل ثم سارت إلى المرآة القائمة فوق المدفأة تنظر إلى صورتها فيها، وهي تتساءل بصوت منخفض وكأنها تتحدث إلى نفسها: «كيف أمكنه ذلك؟ كيف فضل علي أليس ويندهام ذات الوجه المنتفخ كالفطيرة؟»

قال والدها من خلفها: «إنسي ذلك. إنسيه. إنني أعلم أن الفتى لوسيان ليس سوى فيسكونت، ولكن الوصي عليه هو أكثر الرجال نفوذاً ليس في المجتمع فقط، ولكن أيضاً في ميادين السباق كافة. إن مزارع ألفرستود هي النموذج المثالي لكل اصحاب الأملاك. ودعوة للاستضافة في منزل ألفرستود هي أهم من الدعوة إلى أيّ قصر ملكي.»

قالت وقد كست البهجة ملامح وجهها: «إذن، سنذهب إلى هناك ضيوفاً ليس لمرة واحدة، بل لعدة مرات.»

فقال: «وأرجو ألا تنسي دعوة والدك المسكين إلى بعض الحفلات أحياناً.»

«طبعاً يا والدي. ويساورني شعور بأنك ستصبح صديقاً حميماً للدوق عندما نتزوج لوسيان وأنا. وبعد، فأنت من دون شك تملك أفضل جياد السباق في انكلترا.»

«ليس كلها يا عزيزتي، ولكن كثيراً منها.»

«وهذا سيكون رابطاً مشتركاً بينكما. أليس كذلك؟»

فقال: «طبعاً، طبعاً ولكن أقوى الروابط ستكون عندما تتزوجين من لوسيان الذي يحيطه الدوق بكل عناية واهتمام منذ ان كان تلميذاً.»

www.rewayti.net

قالت: «هذا صحيح. ومع أن لوسيان يستاء من الدوق، إلا أنه معجب به تماماً.»

فقال والدها: «كمعظم الناس. أظن يا ابنتي أن مستقبلك هو كما خططته لك بالضبط، فأنت فتاة محظوظة جداً.»

استدارت كلاريبيل مبتعدة عن المرآة التي كانت تنظر إلى صورتها فيها، وسارت نحو والدها، رفعت وجهها إليه فبدت من الجمال بحيث أخذ يحدق فيها وكأنه لم يرها من قبل.

ثم قالت ببساطة: «كم يسرني أن أصبح فيسكونتس!»

الفصل الثاني

فكر الدوق وهو يجيل النظر في ارجاء غرفة الطعام الفاخرة هذه، في ان السيد جارفيس ستامفورد انما يعيش في عظمة وثراء حقيقي.

لم يكن قد توقع أن يكون منزل ستامفورد الريفي ابراج ستامفورد بهذا الاتساع أو أن اثاثه بهذه الوفرة والغزارة انما بذوق حسن.

وعلى كل حال، رأى ان ثمة عدداً غير ضروري من الخدم في الردهة، وكان واثقاً من ان خادمه الخاص سيحدثه عن جيش الخدم الذي يحتل اقسام المطبخ.

كان حالياً يقيّم الضيوف المدعوين إلى العشاء هذه الليلة، فرآهم اناساً محترمين للغاية كما كان السيد جارفيس نفسه مضيفاً بالغ اللطف.

وكان الدوق يعلم ان نزوله ضيفاً على شخص لا تعدو علاقته به سوى مجرد معرفة بسيطة، يمثل بالنسبة إليه أمراً لم يسبق له مثيل، كما ان الحفاوة التي استقبل بها، وحرص السيد جارفيس على توفير كل اسباب الراحة له، كل هذا لم يكن اكثر مما توقع.

عندما وقعت عيناه على كلاريبيل لأول مرة، فهم سبب وقوع لوسيان في الحب، ذلك لأنها كانت دون شك إحدى اجمل النساء اللاتي رآهن في حياته.

لكنه، ولأجل مصلحة من هو تحت وصايته، صمم على

www.rewayti.net

أن يتوخى الحذر البالغ إذ كان رأيه ما يزال بأن لوسيان صغير على الزواج.

حدث الدوق نفسه ساخراً بأن هذا خارج عن مقدرة أي فتاة صغيرة السن مثل كلاريبيل.

وعلى كل حال، فقد كان يعلم، قبل حضوره إلى منزل ستامفورد، بأن الآنسة ستامفورد لم يحتفل بتقديمها إلى المجتمع في العام الماضي نظراً إلى انها كانت ما تزال في حداد على أمها، لذا اضطرت للانتظار إلى هذا العام قبل ان تبرز لتبهر المجتمع بجمالها.

وهكذا أدرك الدوق السبب من عدم ظهورها بمظهر الخجل والتي تتميز بها صغيرات السن من الفتيات المتقدمات حديثاً للمجتمع، بعد ان اكتسبت الآن الاتزان وضبط النفس الذي تتمتع به النساء الأكبر سناً.

وبينما كانت اصناف الطعام تتوالى، وكلها في اطباق ذهبية، أدرك الدوق ان لدى السيد جارفيس طاهياً ممتازاً.

وحدث نفسه بأن لا مجال للاعتقاد بأن الزواج من لوسيان هو طمعاً بثروته.

ولكنه ما زال يتذكر ما سبق وقاله السيد ميدليتون من ان الفتيات جميعهن يطمحن إلى زواج اجتماعي وانه كلما ارتفع اللقب، كلما كان ذلك افضل.

كما ان السيد ميدليتون كان قد أشار إلى انه كان هناك رجل أعلى مرتبة في المجتمع، يدور حول الآنسة ستامفورد، وقد تمكن الدوق، بعد عدة اسئلة حذرة في النادي الأبيض، من أن يعلم بأن ذلك الرجل هو النبيل دورست.

وكان قد اجتمع به عدة مرات فرآه شاباً رصيناً حسن السلوك.

لكن الدوق علم انه ما لبث ان تحول عنها وتزوج من فتاة تفضل الحياة في الريف عنها في لندن، كما ان املاك والدها تحاذي املاكه.

وفكر في نفسه بأن هذا كان تعقلاً منه.

لكنه تساءل عما إذا كان هناك سبب خفي لتحول النبيل عن ملاحقته للجميلة كلاريبيل.

أثناء العشاء، كان الدوق يرى تحديق لوسيان في مضيفته الشابة بنظرات عميقة، ما جعله يرى نفسه بأنه قد يكون مبالغاً في تحري العيوب، وذلك بدلاً من ان يمنح وبهدوء، موافقته القلبية على هذا الزواج.

أثناء السنوات التي جعل فيها من نفسه جندياً لامعاً، وسنوات السلام التي تلت، تعلم ان يقيّم الناس بسرعة وان يستند في ذلك على فطنته.

ولهذا، لم يستغرب ان يشعر على الفور، ودون سبب ظاهر، بتحذير فطري بأن الأمور ليست على ما يرام.

لم تكن لديه ادنى فكرة عما عسى ان يكون ذلك، بل كل ما أحسه بفطنته تلك، كعادته في اسبانيا وفي فرنسا، عندما يكون وجنوده في خطر قبل ان يكون هناك أي دليل على ذلك، بأن عليه ان يكون حذراً.

لكنه حدث نفسه بأن هذه سخافة منه، ثم ركز اهتمامه على حديث السيدة التي بجانبه والتي رآها جميلة كما أدهشه ان يراها ذكية في نفس الوقت.

www.rewayti.net

وعندما انسحبت السيدات إلى غرفة الجلوس، بقي الرجال جالسون لفترة قصيرة فقط.

كان الحديث بأجمعه يدور عن الخيل حيث انه كان هناك إلى جانب الدوق ومضيفه، عدد من اصحاب جياد السباق، المعروفين.

تحدثوا عن انتصاراتهم وطموحاتهم، ووجد الدوق ذلك ممتعاً دون ريب.

وما كان راغباً، في الواقع، في مغادرة غرفة الطعام لولا انه لاحظ بأن لوسيان كان متشوقاً للخروج، بينما كان السيد جارفيس راغباً في ان يسهل له الذهاب إلى غرفة الجلوس حيث تجلس كلاريبيل.

وفي غرفة الجلوس البالغة الاتساع، والتي كانت اللوحات الفنية تزين جدرانها، والتي كان يسر الدوق لو كانت من بين مجموعته، كان هناك الأرائك المريحة لمن يحب الجلوس وتبادل الحديث، بينما كان احد الضيوف يعزف على البيانو.

رأى الدوق لوسيان يتحدث مع كلاريبيل، فلم يشأ ان يحرجهما وفضل الخروج إلى الشرفة المؤدية إلى الحديقة.

كانت الشمس قد ابتدأت بالغروب يحف بها البهاء والروعة، وقد بدا الشفق خلف اشجار السنديان الضخمة رائع الجمال.

وسمع من خلفه صوت السيد جارفيس يتحدث مع الضيوف، فلم يجد اية رغبة في مشاركتهم الحديث.

وبدلاً من ذلك، اخذ يسير فوق أرض الفناء المعشوشبة، وقد بدت له الحديقة، كالمنزل، اكثر

جمالاً من ان تكون حقيقية، وتساءل عما عسى ان يكون عدد العاملين فيها.

فكر متأملاً في ان كل هذا لا بد يكلّف السيد جارفيس المبالغ الكبيرة، واخذ يحاول العثور في ذهنه عن مصدر كل هذه الأموال.

فقد كانت الدعوة إلى منزل السيد جارفيس قد جاءته بسرعة قبل ان يتمكن سكرتيره من جمع المعلومات التي كان طلبها منه.

قرر أن ثمة الكثير من الأسئلة عليه معرفة اجوبتها قبل ان يمنح لوسيان موافقته النهائية على هذا الزواج.

استمر في السير بين سياجين من الأشجار المشذبة بحيث لم يكن فيها غصن واحد أو ورقة خارجة عن مكانها، واذا به يرى امامه بعض درجات قائمة بجانب شلال.

وكانت الأزهار المختلفة تحف بالبحيرة، وتملك الدوق الفضول وهو يرى هذا التنظيم البارع، فصعد الدرجات ليجد في اعلاها درباً صغيراً بين شجيرات ملتفة مزهرة كان شذاها يعبق في الجو.

كان كل ذلك من الجمال بحيث لم يستطع التصديق بأن السيد جارفيس قد صمم كل هذا بنفسه من دون مصمم خبير بمثل هذه الأمور، ومع ذلك فهذا يشهد بالتقدير لذوق ذلك الرجل المحب لكل ما هو نادر.

تابع الدوق سيره، وافسحت الشجيرات الآن المجال لظهور اشجار الصنوبر، كما اصبح الدرب مجرد ممر مغطى بالطحالب، بين جذوع الاشجار تلك، والتي كان يرى من خلالها شفق الغروب. فكر في أنه ما دام قد وصل في سيره

www.rewayti.net

إلى هذا الحد، فلا بأس من ان يواصل تقدمه ليرى ما يوجد في آخر الغابة.

ورغم ان منزل ستامفورد كان مبنياً على تلة مرتفعة، إلا ان هذا المكان مرتفع اكثر بحيث خطر في ذهنه بأن لا بد وهناك منظر رائع، وما ان اخذت الاشجار حوله في التباعد فيما بينها، حتى رأى انه كان على صواب.

في نهاية الغابة، كانت الأرض تنحدر عدة مئات من الاقدام، ما جعل منظر الوادي غير عادي في جماله.

وقف الدوق يحدق في كل ذلك، وإذا به ينتبه فجأة إلى أنه ليس وحده في المكان.

كان على مسافة قصيرة عن يمينه، جسم صغير جالس على جذع شجرة.

كان الدوق ما يزال مستتراً بالأشجار التي كان يسير بينها، فأدرك ان الفتاة وهذا ما بدا له، لم تكن منتبهة إليه.

وظن، لأول وهلة انها قد تكون ابنة احد العمال أو ربما من خدم المنزل.

كانت ترتدي ثوباً من القطن رمادي اللون بدا اشبه بثوب عمل، وكانت منحنية إلى الأسفل وكأنها تتأمل المنظر ذاك.

شعر بشيء من الضيق وهو يرى نفسه غير وحيد كما كان يريد، ورأى ان افضل ما يمكنه القيام به، هو ان يستدير عائداً ادراجه من حيث أتى.

وكأن الفتاة أحست بوجوده، فالتفتت نحوه.

كان أول ما لاحظه فيها عينان كبيرتان داكنتان في وجه صغير شاحب، ثم أدرك انه كان مخطئاً في ظنه، ذلك انها لم

تكن خادمة بكل تأكيد وانما فتاة اكثر رقياً وذات جمال غير عادي.

ثم، ما ان أخذ يحدق فيها، هتفت تقول: «لشد ما انت رائع، تماماً كما كنت اتصورك رغم انني لم أر سوى قمة رأسك.»

ذهل الدوق من كلامها، ولكن قبل ان يجد ما يجيبها به، قالت: «انني... آسفة، وانا أعتذر... ما كان لي ان اقول ذلك... ولكنني دهشت كثيراً... لرؤيتك.»

تقدم الدوق مجتازاً الخطوات القليلة التي تفصله عن الجذع الذي تجلس عليه، وما ان وصل قريبا منها، حتى وقفت وانحنت له برشاقة.

قال لها: «يبدو انك تعرفين من اكون، فمن حقي إذن ان اعرف من تكونين أنت أيضاً.»

أجابت: «هذا غير ضروري.»

رفع الدوق حاجبيه متعجباً، ثم جلس على جذع الشجرة، وقال: «اذا كنت قد قاطعت استمتاعك بجمال الطبيعة هذه، فأرجو المعذرة. ولكنه مكان رائع للاستمتاع بمنظر غروب الشمس.»

أدارت رأسها تنظر عبر الوادي، ثم قالت: «لشد ما هو جميل، وعندما اكون هنا، يساورني الاعتقاد بأنني أشاهد غروب الشمس في الهند.»

فسألها: «الهند؟ وهل كنت هناك؟»

أومأت برأسها.

«اخبريني عنها.»

كان طلبه هذا مزيجاً من الأمر والتوسل، وذلك بصوت كانت معظم النساء تراه لا يقاوم.

www.rewayti.net

وجدها تتردد قبل ان تجيب: «اظن... ان علي الذهاب.»

فسألها: «لماذا؟»

ابتدأت تقول: «لأن... لا حاجة بي... للإيضاح.»

قال: «بل عليك ذلك، فليس ثمة ما يثير الغيظ اكثر من ان تذهبي دون ان توضحي لي السبب في انك لم تري سوى قمة رأسي.»

ضحكت قبل ان تقول: «هذا كل ما بامكان المرء رؤيته عندما ينظر من أعلى نوافذ المنزل.»

ابتسم الدوق: «إذن فقد كنت تسترقين النظر إليّ عندما وصلت.»

«نعم، ومن خلال درابزين السلم من الطابق الثاني عندما كنت داخلاً إلى غرفة الطعام لتناول العشاء.»

كان الدوق يضع على سترته الأوسمة التي نالها اثناء خدمته في الجيش، ذلك لأن احد الضيوف كان أميراً اجنبياً مغموراً، وعندما نظرت إلى واحدة منها، هتفت: «انني واثقة من ان هذه هي ميدالية الشهامة.»

«وكيف علمت ذلك؟»

«كان والدي ذات يوم في فرقة الحرس.»

«اخبريني باسم والدك.»

ومرة أخرى، تحولت بنظراتها نحو مغيب الشمس دون ان تجيب.

وبعد لحظة، قال بإصرار: «اذا كنت لا تريدين ان تخبريني باسم أبيك، فاخبريني باسمك. ان ما يغيظني جداً، هو ان أتحدث إلى شخص أجهل تماماً من يكون.»

فقالت: «إذا كنت مهتماً... إلى هذا الحد... فالأفضل ان

تعلم انني... الشيء الذي تخجل الأسرة من إظهاره للناس... فتخفيه عن الأعين.»

«تخجل الأسرة من إظهاره للناس؟»

«بالضبط! ورجائي إليك، هو ان تعدني... بشرفك بألا تذكر لأحد بأنك... رأيتني؟»

«من الصعب جداً ان اخبر أحداً بأنني قابلت فتاة لا اسم لها وكل ما اعرفه عنها هو انها كانت قد زارت الهند.»

«ولكن عليك ألاّ تقول... ذلك، فهم سيعرفون... حالاً من أنا... وهذه زلة لسان مني... لدهشتي البالغة من... رؤيتك.»

قال الدوق: «انني اعدك بألاّ اخبر احداً بلقائنا هذا، هذا إذا كنت أرضيت فضولي بإخباري عن اسمك وبسبب وجودك هنا.»

نظرت إليه بعينيها الكبيرتين اللتين رآهما الدوق بالغتي التعبير، ما جعله يدرك انها كانت تحاول ان تقرر ما إذا كان بامكانها ان تثق بكلامه هذا، ثم وكأن شيئاً فيه قد طمأنها، قالت ببساطة: «اسمي... جيونا.»

«جيوناني!»

«هذا نكاء منك.»

«ليس تماماً، لقد كنت بارعاً نوعاً ما في اللغة اليونانية عندما كنت في اكسفورد، كما انني زرت اليونان منذ سنتين.»

«هل اعجبتك؟»

«طبعاً.»

قالت بصوت منخفض: «هذا ما ظننته.»

www.rewayti.net

فقال: «والآن اخبريني لماذا انت هنا وما الذي يربطك بمنزل ستامفورد؟»

تغير ما لاح من تعبير في عينيها عندما تحدثت عن اليونان، ثم قالت بسرعة: «هذا سؤال عليك ان... لا تسأله... لقد كنت قد اخبرتك بأنني... مصدر خجل للأسرة.»

«لأسرة السيد جارفيس؟»

فقالت متوسلة: «أرجوك...»

قال: «اذا كنت تتعمدين إثارة فضولي حتى لا استطيع النوم، فقد افلحت في ذلك يا جيونا.»

«لقد وعدتني... بأنك ستنسى انك... قابلتني.»

«انني لم اعدك بشيء كهذا، كل ما قلته هو أنني لن اتحدث عنك لأحد، وانا لا اخل بوعد الشرف.»

ابتسمت قائلة: «هذا ما اعتقده.»

«إذن، كوني اكثر وضوحاً، أو بالأحرى اكثر لطفاً مما كنته حالياً.»

فقالت: «انك تجعل الأمور... صعبة بالنسبة إليّ. ولكن، رغم انني اعتقد بأنني احلم... إلا انني اشعر بالبهجة العارمة إذ أجلس هنا... واتحدث اليك، عندما سمعت بانك قادم إلينا ضيفاً لم اكد اصدق ذلك.»

«وهل سمعت باسمي من قبل؟»

«نعم، فقد كان والدي مهتماً... بانتصاراتك في سباق الخيل، ومنذ سنوات كثيرة تعرف إلى والدك أثناء عشاء عسكري.»

«وهكذا كان والدك يتحدث عني.»

أومأت برأسها قائلة: «لأننا كنا نعيش في الخارج،

فقد كان يهتم بكل شخص كان يعرفه قبل ان... يغادر انكلترا.»

«ولماذا عشتم في الخارج؟»

وعندما لم تجب، قال: «حدثيني بالمزيد عن والدك.»

«وما الفائدة من تذكره الآن بعد ان... مات.»

وكان في صوت جيونا رجفة أقرب إلى الشهقة. ثم اشاحت بوجهها كيلا يرى الدوق الدموع في عينيها.

سألها برقة: «هل قتل والدك في الحرب؟»

نفت بحركة من رأسها قائلة: «كلا... لقد مات... وكذلك أمي بعد اصابتهما بمرض التيفوئيد في... نابولي... منذ سنتين.»

«أنا آسف.»

«كم أتمنى لو... كنت قد مت... معهما.»

وكانت تلك صرخة بدت وكأنها تنفجر من بين شفتيها.

فقال لها: «عليك ألا تتحدثي بهذا الشكل. فأنت جميلة جداً، والحياة جميلة حتى ولو كانت حلوة ومرة بالنسبة لكل انسان.»

«انها بالنسبة إليّ، بالغة... المرارة. فأنا في اعماق... اليأس، وليس ثمة من... مهرب.»

«لماذا؟»

ساد الصمت، وبعد لحظة عاد يقول: «هل تركك والدك دون مال، ما اضطررت معه للعمل لكي تعيشي؟»

رأى ان ذلك هو ما جعله يظن بأنها خادمة، ولأن ثوبها القطني الرمادي اللون هو من النوع الذي ترتديه الخادمات.

www.rewayti.net

وكأنما تلقت إهانة، أجابت غاضبة: «ما كان والدي ليتركني فقيرة، بل بالعكس، فقد تركني... بالغة الثراء.»

رفع الدوق حاجبيه بدهشة.

لم يستطع منع نفسه من معاودة النظر إلى ثوبها. واستطاع ان يرى من ان الخف الذي كانت تحتذيه ممزق عند اصابع القدم.

قالت فجأة: «كف عن إلقاء الاسئلة، انك... ستتركني بذلك... تعيسة افكر في... الماضي... الذي أريد... نسيانه.»

كانت تتكلم بلهجة مثيرة للمشاعر، وقبل ان يتمكن من الكلام، اضافت تقول بسرعة: «لا أدري لماذا... ابتدأنا هذه... المحادثة... ومع ان الحديث معك كان... أروع من ان يمكنني وصفه... فإنني ارجوك ان... تذهب.»

قال بحزم: «لا أرغب في ذلك.»

قالت: «ولكن... يجب ان تذهب... يجب، ثم... انهم قد يفتقدونك.»

فأجاب: «عند ذلك سيكون لدي سبب معقول جداً أبرر به غيابي هذا.»

قالت: «إذن... فسأذهب انا، وإذا شئت ان تبقى هنا... أرجو منك ألا تنظر إليّ... أثناء ذهابي.»

قالت ذلك بتردد، فنظر إليها بدهشة، وقال: «عليك أولاً ان تفسري لي سبب هذا الطلب.»

وإذ رأى جيونا على وشك الرفض اضاف يقول: «وإلا فستجعلينني فضولياً مرة أخرى، وسانظر إليك وانت تتوارين بين الأشجار.»

فسألته: «هل تحصل دوماً... على ما تريده؟»

أجاب: «دون شك.»

«إذن... فهذا أمر سيء بالنسبة إليك... ولكن... اظن هذا أمر متوقع... من شخص بالغ الأهمية والذكاء... مثلك.»

سألها: «هل تجامليننني بهذا الكلام؟»

حركت رأسها نافية، ثم اجابت: «ان رأي فتاة تافهة مثلي لا يمكن ان يثير أي اهتمام لديك.»

ضحك الدوق: «انك الآن تعتمدين استفزازي، فدعينا نعد إلى السؤال الذي لم تجيبي عليه، لماذا عليّ ألا انظر إليك وانت تغادرين المكان، إذا كنت مصرة على هذا؟»

بدا في عيني جيونا لمحة من المكر وكأنها تجد في ازدياد فضوله نوعاً من التسلية.

ثم قالت: «اذا انت شئت الحقيقة، فهي انني كنت قد فتحت خرق ثوبي... فإذا انا سرت... سيبدو ظهري للعيان... وهذا شيء بعيد عن الاحتشام.»

فسألها: «ولماذا فعلت ذلك؟»

«أما زلت مهتماً... بسماع الحقيقة؟»

«انك تعلمين هذا، كما انك تعلمين انك تثيرين تساؤلاتي اكثر فأكثر.»

«عما هو عار للأسرة؟ لديك يا سيدي الأمور التي تشغل ذهنك أكثر من هذا.»

«لو لم يكن أمرك هذا غريباً لما شعرت بالفضول.»

ضحكت جيونا وقالت: «قد يكون هذا صحيحاً، وهذه هي طريقة والدي في التفكير، وربما كان هذا سبب ما كنا عليه معاً من مرح وهزل.»

www.rewayti.net

«اخبريني إذن عن سبب ما فعلته بثوبك.»

أجابت: «انني اتساءل عما ستكون عليه ردة فعلك إذا انا شرحت السبب، أهي الصدمة، أم الدهشة، أم الاشمئزاز.»

«ساخبرك بنوع ردة فعلي عندما اسمع شرحك.»

فقالت متنهدة: «حسناً جداً، ان بعض ضربات السوط على ظهري تنزف، وعندما تلتصق بثوبي يصبح نزعه مؤلماً جداً، كما انني اشعر بأن هواء المساء يبرده.»

حدق الدوق فيها غير مصدق، وسألها: «ماذا تقولين؟»

أجابت متحدية: «انني اخبرك بأنني ضربت مؤخراً. وهذا شيء يحدث لي مراراً منذ حضوري إلى هنا، اتفهم الآن لماذا أتمنى لو كنت قد... مت مع والدي ووالدتي في نابولي؟»

كان من المستحيل عليها إخفاء الدموع في عينيها، وعندما تدفقت أخذت تمسحها براحة يدها بشيء من الغضب، ثم قالت بلهجة اتهام: «انه ذنبك لأنك جعلتني... اتحدث بهذا الشكل، ولكنني لم اتحدث إلى رجل مثلك... منذ سنتين.»

جذبت نفساً عميقاً قبل أن تتابع قائلة: «لأنك اعدت إليّ الشعور... بالسعادة التي فقدتها... لا أدري من أشكر... انت أم الظروف التي قادتك إلى هنا هذا المساء.»

«من الذي ضربك؟»

جاء هذا السؤال بحدة وبصوت مسيطر آمر، كان عندما يستعمله الدوق، يرغم السامع على الطاعة.

ساد صمت قصير قالت جيونا بعده بصوت خافت: «انه

نفس الشخص الذي... احضرني إلى هنا... من نابولي... والذي افترى على أمي الحبيبة... والذي يكرهني.»

وقبل أن تزيد في القول، علم الدوق الجواب، فقال: «هل تعنين السيد جارفيس؟»

لم تتكلم، ولكن خيل إليه أنه يرى حركة إثبات خفيفة من رأسها.

«لماذا؟ وما صلته بك؟»

«لقد وعدتني... بعدم إذاعة كلمة... مما نقوله... ولكن إذا أنت تكلمت عن هذا... فهو سيقتلني... انه سيقوم بذلك على أي حال... بجلدات سوطه... ولكنه سيكون موتاً أسرع من الطريقة التي... يقوم بها حالياً.»

«انظري إليّ يا جيونا.»

وبدا صوته آمراً مرة أخرى، فالتفتت إليه ببطء.

كانت الدموع تغسل وجنتيها، ولكن ذلك لم يؤثر على جمالها الذي بدا للدوق غير انكليزي بل يوناني.

قال بهدوء: «ثقي بي، لقد اخبرتني بالكثير، فثقي بي بإخباري بالقصة باجمعها، وأقسم لك بأنني ساساعدك بطريقة ما.»

وبالرغم من أنها رأت فيه حبلاً للنجاة يمكنها التعلق به، لكنها قالت بلهجة تنم عن العجز: «حتى ولو... اخبرتك... لا يمكنك ان تفعل... شيئاً.»

«وما أدراك؟»

«انه لن يدعني أذهب... أبداً، إنني... لا أبالغ... عندما أقول انه... يريدني ان أموت، وبما ان والدي قد مات، عندئذ يبقى سره دفيناً للأبد.»

www.rewayti.net

كانت تتكلم بطريقة تأكد معها الدوق انها صادقة، وكان حكمه على الاشخاص صائباً جداً، فكان يعلم مبلغ صدق الرجل أو المرأة، وما اذا كان في ما يقوله المرء اخلاص أو تمثيل أو مبالغة.

كان مقتنعاً كلياً بأن جيونا لم تكن تمثل أو تبالغ فعاد يقول: «ابتدئي من أول القصة واخبريني عنها بالكامل.»

أجابت: «لا يمكنني في الواقع، ان أبدأ من أول... القصة، لأنني لا اعرفها... انا شخصياً...»

«من هو والدك؟»

«إنه شقيق عمي جارفيس.»

«انك إذن من أسرة ستامفورد؟»

«نعم، ولكن غير مسموح لي باستعمال هذا الاسم.»

«لما لا؟»

«لست واثقة... تماماً، فقد كان والدي يستعمل أسماء كثيرة في اسفارنا، ولكنني اعلم ان عمي هو الذي جعله يسافر من بلد إلى آخر مغيراً اسمه في كل مرة.»

«و أمك كانت تسافر معه؟»

«طبعاً كانت أمي تسافر معه، لقد كانت تحبه. كانا يحبان بعضهما البعض كثيراً، وكانت على استعداد للسير حافية إلى قمة جبال هملايا لو طلب منها ذلك.»

«ولكن لم يكن لديه مال.»

«بل كان لدى والدي المال الكثير، كان غنياً جداً في الواقع، ولكنني أظن ان اكثر نفقاته كانت تصله من عمي جارفيس، فقد كان المال دوماً في انتظاره في مصرف أية دولة نزورها، ولهذا عشنا في راحة تامة وكنا سعداء جداً.»

«ألم تعودوا إلى انكلترا؟»

«كنت اعلم انه ليس بإمكاننا ذلك، كان والدي يبدو احياناً متضايقا وشارد الذهن، فكنا أمي و أنا، ندرك انه كان يفتقد لاصدقائه ولرحلات ولكل الأشياء الأخرى التي كان يستمتع بها قبل أن يهاجر من بلاده.»

«وماذا حدث بعد ذلك؟»

«كنا قد عدنا إلى أوروبا وكنا في اليونان، إلى ان فكر والدي في الاستمتاع بزيارة إيطاليا مرة أخرى، ولكن عندما وصلنا إلى نابولي، كان وباء التيفوئيد متفشياً فيها.»

ورأى الدوق جيونا ترتجف مرة أخرى وهي تتابع قائلة: «كان هذا... مرعباً، كل شخص كان يبدو... شديد المرض، وقبل ان نتمكن من ترك المدينة وقع والدي، ثم والدتي... فريسة للمرض.»

«ولكنك نجوت.»

«نعم، لسوء الحظ.»

ساد صمت طويل قال الدوق بعده: «وماذا حدث بعد ذلك؟»

«كنت من الحزن لموت والدي بحيث بقيت في الفيلا التي كنا قد استأجرناها، فكتب المصرف الذي كان يحتفظ بنقود والدي، إلى انكلترا يخبر عمي جارفيس بما حدث، وبهذا عرف مكان إقامتي.»

«واظنه جاء ليأخذك.»

أغمضت جيونا عينيها قائلة: «لا أريد التحدث بذلك.»

«لا استطيع مساعدتك إلا إذا اخبرتني بكل شيء.»

«لقد سبق واخبرتك بانك... لن تستطيع تقديم المساعدة...

www.rewayti.net

لا احد يستطيع... ذلك، ولكن إذا أردتني ان اتابع سرد هذه... القصة التعسة، فسأفعل.»

«هذا ما أريده منك.»

«جاء عمي جارفيس... ثم اخبرني...»

وسكتت، وبدا للدوق انه من المستحيل عليها ان تتمكن من قول الكلمات القليلة التالية، وعندما عادت إلى الكلام، كان ذلك همساً: «اخبرني بأن... والديّ... لم يكونا متزوجين... وأنني... غير شرعية... أو حسب قوله، ابنة تجلب العار.»

وفجأة قالت بغضب عارم: «هذا غير صحيح، انا اعلم ان هذا لم يكن صحيحاً، لقد هرب والدي مع والدتي وتزوجا لأن والده كان يريده أن يتزوج من بيئة ارستقراطية كما فعل عمي جارفيس.»

«وهل رفض هو هذا؟»

«كان قد خطب ابنة أحد النبلاء، ولكنه ما لبث أن تعرف إلى أمي.»

قال: «فأحبا بعضهما البعض.»

أجابت: «أحب الواحد منهما الآخر بشكل بالغ، وعندما أدرك والدي بأن والده لن يوافق على الزواج منها أبداً، أقنع أمي بالهرب معه، ولكنهما تزوجا قبل ذلك... أنا واثقة من هذا.»

«لا بد ان هنالك تسجيلاً لهذا الزواج، وليس من الصعب العثور عليه.»

«لم تسنح لي الفرصة... للبحث عنه.»

«سأقوم بذلك لأجلك.»

«هل بامكانك ذلك؟ أعني هل ستفعل ذلك حقاً؟»

«هذا أمر آخر اعدك بالقيام به.»

«كان والد أمي رجل دين في هامبشاير، فلم يعقد زواجهما لأن رئيسه كان صديقاً لجدي، فرأت أمي انهم قد يسيئون إلى والدها اذا هو فعل ذلك، ولهذا تزوجا في دوفر... وهذا أمر أنا واثقة منه جداً.»

«وكيف عرفت هذا؟»

«لأنهما ذهبا إلى فرنسا هاربين من كل ما سيتبع من ضجة وثرثرة في المجتمع بعد ان فسخ والدي خطوبته من الفتاة الأخرى.»

«وهل حدثت ضجة فعلاً؟»

«اظن ذلك، بل انا واثقة، لأنه عندما كانا في فرنسا، ذهب عمي جارفيس ليبلغهما بأن على والدي البقاء خارج انكلترا بانتظار لما سببه من فضيحة شائنة... كما كان هناك سبباً آخر... كذلك.»

وأبدت جيونا إشارة بيديها تنم عن العجز وهي تقول: «ولكن هذا ما لا اعرفه، فوالدي لم يخبرني به ابداً، ولكنني عندما أعود بذاكرتي إلى بعض ما كانت أمي تقول، أدرك انه في ذلك الوقت أخذ عمي جارفيس يرسل إليهما مالاً كثيراً، ثم أخذا يغيران اسمهما كلما سافرا من بلد إلى آخر.»

«وماذا حدث لكل ذلك المال؟»

«لقد اخبرني عمي بأنني... ابنة غير شرعية... وانه يشعر... بالعار والاشمزاز حتى من كوني... موجودة في الحياة، قال انني لا أرث قانونياً شيئاً من أموال والدي... وهي له وحده حسب القانون.»

فقال الدوق: «إنني واثق من ان هذا غير صحيح، فإذا كان

www.rewayti.net

والدك قد ترك وصية بأن تحول امواله اليك، فسترثينه مهما كان الأمر.»

«وكيف بإمكاني ان... أثبت ذلك؟ لقد أعادني عمي إلى انكلترا، ثم قال لي ان عليّ البقاء في منزله ابراج ستامفورد هذا... وأنه يجب ألا يراني أحد... وإذا ما حاولت استجلاب... الانتباه إليّ، فسيجلدني بالسوط إلى أن... يغمى عليّ.»

«لماذا ضربك هذا النهار؟»

«كان ذلك أمس... قبل ان تصل بالضبط، فقد ذهبت بغباء لاتفرج على المائدة في غرفة الطعام، ولم اكن قد رأيت كل تلك الأطباق الذهبية من قبل، كما ان الزنابق التي كانت على المائدة كانت من افضل الأنواع... ولكن عمي رآني... هناك.»

«ولهذا ضربك.»

«اظنه يسر عندما يجد عذراً لذلك، وقد أعطى تعليماته للخدم بتجويعي، حتى إذا ضعف جسمي... أموت فيتخلص مني.»

وكان الدوق على وشك القول بأنه لا يستطيع التصديق بأن هناك رجلاً بهذه القسوة والوحشية، عندما رأى جيونا، وكأن ما قالته قد أنهك مشاعرها، رآها تنحني إلى الأمام لتغطي عينيها بيديها.

وما لبث حتى شعر بالغضب يتصاعد في نفسه كالنار في المحرقة.

كان هذا ما يشعر به عندما كان في ساحة المعركة في البرتغال، يرى بعض الجنود وقد جلدوا بالسياط فيشعر بأنه يريد قتل أولئك الذين اقترفوا تلك الأعمال الوحشية.

يدرك الآن ان فطنته التي اخبرته بأن ثمة شيئاً غير صالح فيما يتعلق بالسيد جارفيس، لم تخطىء، وأصبح يعلم الآن ان عليه انقاذ جيونا بأي شكل كان.

وأدرك ان أهم شيء هو اقناعها بأن ثقتها فيه لم تكن عبثاً وأنه سينقذها بشكل ما من ذلك العم القاسي الذي يحاول ان يهلكها بشتى الوسائل، قال: «استمعي إليّ، يا جيونا.»

رفعت وجهها إليه كطفلة مطيعة، ورأى أنها قد تمالكت نفسها رغم الدموع التي ما زالت تبلل وجنتيها.

قال لها بهدوء بالغ: «أريدك أن تثقي بي، واعدك مرة أخرى بشرفي بأنني سأنقذك وبأنني سأسعى لإثبات زواج والديك وذلك لأجعلك سعيدة.»

حملقت جيونا فيه لحظة غير مصدقة، ثم إذا بعينيها تلمعان وكأن آخر أشعة الشمس الغاربة قد استقرت فيهما، ثم تتألقان كأول نجوم الليل التي بدأت تظهر في السماء.

قالت: «عندما رأيتك لأول مرة، شعرت بانك، بشكل ما... وبطريقة غامضة... لا افهمها، بأن الظروف دفعتك... لتساعدني.»

فقال: «إنني عائد إلى المنزل، وسأفكر في ما بإمكاننا عمله، يجب ان تقابليني مرة أخرى غداً مساءً في هذا المكان.»

«هنالك حفلة في مساء الغد.»

«هذا أفضل، فقد يجعل من السهل ان نتقابل دون أن يشتبه أحد في الأمر.»

www.rewayti.net

«قد يشتبهون بالأمر... لغيابك الطويل، وبعد فأنت اهم ضيف هنا.»

«بل ان الفيسكونت والذي هو تحت وصايتي، هو الأهم، ولا شك انك تعلمين سبب وجودنا هنا.»

«ان كلاريبيل تريد الزواج منه.»

«هذا إذا اعطيت انا الإذن بذلك.»

«فهمت مما يقال في المنزل ان التوافق تمّ مسبقاً.»

«بالعكس، فقد أوضحت تماماً بأنني سافكر فقط في السماح بهذه الخطبة، ويمكنني ان أؤكد لك الآن، بأن ليس ثمة أمل في ان يكون جوابي هو نعم.»

«هذا قرار حكيم، فهي لن تسعده.»

«كيف تعلمين ذلك، بصرف النظر عن انها ابنة عمك؟»

«انه سؤال... افضل عدم الجواب عليه.»

فقال: «لن اضغط عليك، حيث ان اهتمامي حالياً مركز عليك.»

«انني... انني لم اقصد... اشراكك في متاعبي، لم تكن لدي ادنى فكرة عن انني... سأراك ما عدا...»

فأكمل الدوق باسماً: «ما عدا من النافذة العليا، ولكن ها اننا تقابلنا، يا جيونا، واظن هذا من حسن الحظ.»

أدرك انها كانت ترتجف. ولكن عندما لم تتكلم، قال: «ما الذي يخيفك؟»

«لقد تصورت الآن... مبلغ غضب عمي جارفيس عندما يعلم بأنني... قد تكلمت معك... فكيف بهذه المحادثة.»

قال: «انه لن يعلم، ولذا علينا ان نتوخى الحذر البالغ.»

وقف ثم جذب جيونا من يدها لكي تقف هي أيضاً.

قال: «انني سأعود إلى المنزل الآن، واتصور ان لديك طريقك الخاص للعودة، ولهذا لا أرى سبباً يجعل أي شخص في المنزل يدرك بأننا كنا هنا معاً.»

فقالت: «أرجو... ارجو ألا يعلموا بهذا، فالخدم لا يحبون السير في الغابات عندما يحل الظلام... وعلى كل حال، لن يفتقدني احد.»

«هل تناولت عشاءك؟»

اطلقت ضحكة قصيرة: «قد أجد... وقد لا اجد شيئاً في غرفتي، فمن غير المسموح لي الذهاب إلى المطبخ عندما يكون هناك حفلة في المنزل، خوفاً من أن يراني خدم وخادمات الضيوف الخصوصيون.»

قال فجأة وقد ساءه التفكير بأنها جائعة: «انك نحيلة جداً.»

هزت كتفيها، وأجابت: «لقد افسدني الطعام اللذيذ الذي كنت اتناوله مع والدي واللذين كانا يؤمنان بأن في اعداد الطعام فن قائم بحد ذاته، ما جعلني أجد صعوبة في أكل بقايا طعام الخدم والتي كل ما احصل عليه هنا... ولكن ليس... ثمة بديل لهذا.»

قال الدوق: «سيكون هناك بديل لذلك في المستقبل. وعندما تذهبين إلى فراشك هذه الليلة تذكري ان المستقبل سيكون جميلاً متألقا كالشمس التي ستشرق مرة أخرى في الصباح.»

فقالت: «أريد... أريد ان اصدق... هذا.»

«كوني قوية الإيمان في أن الليل سينجلي، والظلام سيتبدد سريعاً.»

www.rewayti.net

فسألته: «من أين لك كل هذا الإدراك؟ انه نوع الكلام الذي كان والدي سيقوله لي لو كان ما يزال على قيد الحياة.»

قال الدوق: «أظن الشيء الذي كان والدك سيرغب فيه لو كان موجوداً، هو أن تثقي بأنني هنا لكي أساعدك.»

«اريد ان اصدق ذلك... ولكنني... خائفة.»

«من عمك؟ إنسيه.»

جذبت نفساً طويلاً، فأدرك انها تتذكر ما نالته أمس من ضرب بالسوط، وفي غضب عمها إذا ما خامره أقل شك بأنها كشفت للدوق كل هذه الأسرار.

فقال لها بهدوء: «لقد وعدتني بأن تثقي بي.»

قالت: «وأنا أثق بك، أقسم لك بذلك... وشكراً لك... شكراً لمنحي الأمل حين ليس هناك... سوى الظلام واليأس.»

«كل هذا قد انتهى وستنسين ذلك سريعاً، ولكن علينا أن نتمسك بالحذر والاحتياط البالغين.»

أومأت برأسها، ثم، عندما لم يعد هناك حاجة للمزيد من الكلام، وعندما غاص في الأفق آخر شعاع ذهبي من الشمس، استدار الدوق عائداً من الطريق الذي أتى منه خلال غابة الصنوبر والتي تؤدي أولاً إلى الشجيرات ومن ثم إلى الدرجات القائمة بجانب الشلال.

ثم انتقل بأسرع ما يستطيع، ليس نحو المنزل بل إلى قسم آخر من الحديقة، حتى إذا ما اقترب من الشرفة المؤدية إلى غرفة الجلوس يكون مجيئه من اتجاه آخر مختلف كلياً.

ثم أخذ يتمشى ببطء وعفوية، وكأنه كان غارقاً في التفكير، وعندما وصل إلى الدرجات الصاعدة من الفناء إلى

الشرفة، انتبه إلى ان شخصاً كان في انتظاره خلف الحاجز الحجري.

هتف السيد جارفيس بينما كان الدوق يصعد الدرجات ببطء: «آه، هذا انت، لقد كنت اتساءل عما عسى ان يكون قد حدث لك.»

فقال الدوق: «لقد كنت استمتع معجباً بحديقتك، يا ستامفورد، انها سارة تماماً، وعليك ان تخبرني عمن صممها.»

ضحك السيد جارفيس: «يشرفني سرورك بها، هل يكون غروراً مني إذا انا اخبرتك بأنها من تصميمي الخاص؟ انها إحدى الإنجازات التي افتخر بها.»

وبدا ذلك واضحاً في لهجته، ولكن الدوق كان يشعر بأنه كاذب.

www.rewayti.net

الفصل الثالث

إذا كانت جيونا قد أرقت هذا الليل بعد أن وجدت انه من المستحيل تصديق ما حدث، فهكذا حدث مع الدوق.

لقد تودد إلى السيد جارفيس بشكل غير عادي وذلك لكي يبدد أي شكوك محتملة قد تكون ساورته نحوه، وعندما صعد أخيراً إلى غرفة نومه كان هيبرت في انتظاره فخلع ثيابه بصمت.

لم يتكلم إلا عندما أصبح الخادم على أهبة الخروج من الغرفة حاملاً ملابس سيده المسائية فوق ذراعه.

فقال له: «أخبرني عن رأيك في هذا المنزل، يا هيبرت إن رأيك يهمني.»

نظر إليه خادمه متسائلاً، إذ كان يعلم أن سيده ما كان ليلقي عليه سؤالاً كهذا دون أن يكون لديه سبب قوي وراء ذلك.

كان أثناء الحرب يعمل مراسلاً خاصاً لديه في الجيش، وكان بالغ المهارة في جمع المعلومات عندما يحتلون مدينة أو قرية، ما كان الانكليز ليحصلوا عليها لولاه.

كان هيبرت، رغم اسمه الانكليزي البحت، يجيد التكلم بعدة لغات إلى جانب لغته، وذلك بسهولة تامة، وكانت قدرته في التحدث باللغتين الفرنسية والبرتغالية لا تقدّر.

تردد الآن، قبل أن يقول ببطء:

«إن السيد جارفيس، يا سيدي الدوق، يستخدم عدداً من الموظفين أكثر من أي بيت آخر قمنا بزيارته. ولكن، حيث أنك تسألني رأيي، فهو أن الخدم غير سعداء.»

«وما السبب؟»

«إنني غير واثق تماماً، يا سيدي. ولكن هناك نوعاً خفياً من الكآبة والحذر بالنسبة لكل شيء، ما يجعلني أظن، وقد تكون هذه سخافة مني، بأنهم خائفين بشكل ما.»

قال الدوق: «لا أرى اية سخافة، وأنا أريدك أن تعرف ما الذي يجعلهم خائفين، وأي شيء آخر ترى أنه قد يهمني معرفته.»

ورأى في عيني خادمه نظرة متيقظة أشبه بنظرة كلب شم رائحة جرذ.

لطالما فكر في أن هيبرت، مثله هو، يرى زمن السلم كئيباً للغاية. وعندما خرج خادمه، رأى أن ظنه في هذا محله.

كانت سطحية مجتمع الطبقة الارستقراطية والحفلات المتوالية المتشابهة، والنساء البعيدات عن الابداع أو الشخصية المميزة، كل ذلك جعله شخصاً ملولاً ساخراً.

اما الآن، ليس امامه انقاذ جيونا فقط، ولكن أيضاً هناك مصارعة بالدهاء لعدو منيع، ما أنعش في نفسه مشاعر لم يعرفها منذ هزيمة نابوليون التي وضعت حداً للعداء مع فرنسا.

استعاد في فكره كل ما قالته له جيونا، ثم بنى في ذهنه صورة معينة.

ولكنه كان يعلم أنه ليس من السهل اثبات سبب ارسال

www.rewayti.net

السيد جارفيس كل تلك المبالغ الطائلة لشقيقه لكي يبقى خارج البلاد، إلا إذا تمكن ميدليتون من العثور على الحقائق التي تفسر ذلك.

ورغم محاولاته، لم يستطع أن يتذكر أي شيء سوى فكرة غامضة عن شيء ما كان قد سمعه، يتعلق بأمر يحط من سمعة السيد جارفيس.

حدث نفسه بأن ذلك لا بد وكان منذ وقت طويل مضى.

ثم تذكر ما شعر به من الرعب عندما كلمته جيونا عن تعرضها للضرب بالسوط، وأدرك أنه عليه أن يخلصها من هذه القسوة التي لا بد تسبب لها عذاباً لا يطاق، حتى ولو لم يبق من حياته سوى يوم واحد.

ذلك أن ما حفره الألم على وجهها من أخاديد، كان من الوضوح إلى درجة جعلته يتمنى تحويل هذا الألم إلى السيد جارفيس، ويذيقه لذع السياط إلى أن يفقد وعيه.

وعندما قابل مضيفه على درجات الشرفة حين عودته من لقائه مع جيونا، شعر بموجة من الكراهية تكتسح مشاعره، ما كان ليستطيع كبتها لولا تلك السنوات من التدريب على ضبط النفس أثناء وجوده في الجيش، فأخذ يستجيب لما ظهره له السيد جارفيس من لطف ومودة، فيمتدح حديقته، ومنزله، وابنته.

وأخذ الدوق يفكر متأملاً في اجادته لتمثيل هذا الدور، آملاً في أن يتمكن من متابعته غداً، دون أن يساور السيد جارفيس ذرة من الشك في عدم ميله إلى الموافقة على زواج لوسيان من كلاريبيل.

وما أن فكر في لوسيان حتى انتبه فجأة إلى أن إقناعه بذلك لن يكون سهلاً.

فهو يعلم طبيعة لوسيان والتي تجعله يزداد عناداً وتصميماً على هذا الزواج سواء رضي وصيه بذلك أم لا، هذا إذا جابهه هو بمعارضة مباشرة لهذا الزواج.

وحدث الدوق نفسه بابتسامة ساخرة، بأن هذا ما كان سيفعله هو نفسه لو كان مكانه.

كان يعلم أنه من الميزات الحسنة في أي شاب، هي أن يؤمن بفضيلة المرأة التي يحب فلا يستمع إلى التقولات التي تفتري عليها.

ولكنه كان يعلم جيداً أن هذه الحالة هي مشكلة خاصة وعقبة واضحة يجب التغلب عليها، هذا إذا كان للسيد جارفيس أن ينال عقابه العادل الذي يستحق.

وبنفس الطريقة التي كان الدوق يخطط بها لتحركات جنوده قبل الذهاب إلى المعركة، أخذ الآن يفكر في تحركاته واحدة بعد أخرى. ومضى وقت طويل قبل أن يخلد أخيراً إلى النوم.

* * *

كان الدوق قد رتب الأمر بحيث يخرج في الصباح التالي للنزهة على صهوة جواده باكراً قبل الافطار، كما اعتاد أن يفعل في منزله سواء في الريف أم في لندن.

أيقظه هيبرت الساعة السابعة ثم ساعده على ارتداء ملابس الركوب بصمت قبل أن يسأله الدوق: «ثمة شيء واحد أريد أن أعرفه يا هيبرت، وقد يمكنك معرفته من أحد الخدم

www.rewayti.net

الأكبر سناً، وهو السبب الذي جعل النبيل دورست، والذي كان يلاحق الآنسة كلاريبيل منذ فترة قصيرة، يتحول عنها ليخطب فتاة أخرى.»

أجاب هيبرت: «سأبذل ما في وسعي يا سيدي، ولكن كبار السن من الخدم، متحفظين جداً إزاءنا نحن زوّار هذا المنزل. وفي الواقع أننا نتناول طعامنا في غرفة خاصة بنا، وهذا شيء لم يحدث في أي منزل حللنا فيه ضيوفاً.»

رفع الدوق حاجبيه.

كان يعلم أن ثمة تسلسلاً في الرتب، بين الخدم في البيوت العريقة، فتتمتع حتى بنظام أكثر صرامة منه في غرفة الطعام بالنسبة إلى الضيوف الارستقراطيين.

كما كان يعلم بأن العادة، بالنسبة إلى هيبرت، حيث أنه الخادم الخاص للدوق، أن يكون مكانه إلى المائدة على يمين مدبرة المنزل إلا إذا كان هناك خدم من القصر الملكي.

واتباعاً لنفس التقاليد، فإن خادمة زوجته، لو كان له زوجة، تجلس عادة إلى يمين رئيس الخدم.

ان أهمية كل خادم، أو خادمة من أهمية سيده أو سيدتها، وفي منزله هو، لا تتغير هذه القاعدة، رغم أنه غالباً ما كان يغير أماكن ضيوفه حول المائدة وذلك لكي يتمكنوا من الحديث إلى أشخاص آخرين بجانبهم، فتزداد بذلك متعتهم واهتمامهم.

قال مخاطباً خادمه:

«هذا شيء غريب، يا هيبرت ومع ذلك، فانظر ما يمكنك

معرفته. فأنا أعلم أنه لم يسبق لك أن فشلت في أمر كهذا من قبل.»

قال هذا مدركاً أنه بذلك، يدفع بخادمه إلى بذل قصارى جهده. وكان واثقاً تماماً بأن بعض الأمور ستنكشف له قبل أن يغادر هذا المنزل صباح الاثنين.

كان في الواقع، قد أوشك على الاصرار على المغادرة يوم الأحد، ولكن لوسيان توسل إليه أن يمكثا في أبراج ستامفورد ثلاثة ليال، قائلاً بقلق: «من العدل، بالنسبة إلي، وإلى كلاريبيل أن تمضي هنا وقتاً أطول وذلك لكي تفكر في ما سيكون عليه حكمك.»

وقد ضحك الدوق حينذاك قائلاً: «إنك تظهرني وكأنني قاض يحكم بالشنق.»

أجاب لوسيان بحرارة: «وهذا ما ستكون عليه إذا أنت لم تسمح لي بالزواج من كلاريبيل.»

فكر الدوق متوجساً بأنه مقبل حقاً على مشاكل صعبة مع لوسيان عندما يخبره بأنه يفضل أن يراه ميتاً على أن يراه متزوجاً من ابنة السيد جارفيس ستامفورد.

عندما عاد من نزهته ودخل إلى غرفة الافطار، أخذ يفكر في ما عسى أن تكون جيونا قد تناولت من طعام.

كما أنه وجد صعوبة في النظر إلى كلاريبيل عندما ظهرت، فيما بعد، هذا الصباح، مرتدية ثوباً باهظ الثمن لا يمكن مقارنته بثوب جيونا القطني الرخيص الرمادي اللون وخفها المهترىء.

كان من المستحيل أن تعيش كلاريبيل في نفس المنزل مع ابنة عمها دون أن تعرف كيف تعيش هذه وكيف يعاملها

www.rewayti.net

والدها. ورأى أن مظهرها الذي تبدو فيه أشبه بالربيع الندي، ما هو إلا تمثيل غاية في البراعة لما يتوقعه منها الآخرون أن تبدو، وليس شخصيتها الحقيقة.

كان في تصميم السيد جارفيس الحازم على أن يستمتع ضيفه الدوق بهذه الزيارة، كان في ذلك ما جعله يخطط لكل لحظة من النهار وذلك بكل عناية واهتمام.

لم تكن الضيفات ينهضن من نومهن مبكرات، ولكن بالنسبة للسادة، كان هناك، بعد الافطار، مباراة في الملاكمة بين ملاكمين محليين وجدها الدوق ممتعة حقاً حيث أنه كان هو نفسه يحب هذه الرياضة.

وقبل موعد الغداء، ذهب الجميع إلى الاصطبلات لمعاينة جياد السيد جارفيس، ولا شك أن أي محب للخيل، كان سيعجب تماماً بما تحتويه اصطبلات السيد جارفيس.

قال جارفيس للدوق مزهواً: «إن لدي حصانين سأتحداك بهما السنة القادمة. وربما يمكننا معاً أن نتحدى العالم ونفوز بكل جائزة دون الحاجة إلى أن نقتسمها.»

قال هذا بلهفة ادرك الدوق منها بأنه كان يفكر في أنه السنة القادمة ستكون كلاريبيل والفيسكونت قد تزوجا.

تمكن الدوق من أن يقول باسماً: «حقاً إنها فكرة.» ثم بدل الموضوع باظهار اعجابه بحصان كانوا يعاينونه.

وبعد الغداء الذي كان شاركهم فيه عدد من الجيران، كان هناك سباق الحواجز على أرض ساحة السباق الخاصة

بالسيد جارفيس والتي كانت تبعد عن المنزل مسافة قصيرة.

ذهبوا إلى هناك في عربات مكشوفة كانت النساء فيها ترتدين أثواب الموسلين الموشى بالأزهار والقبعات الجميلة ويرفعن فوق رؤوسهن المظلات الملونة.

وكان هناك رجل يحمل دفتراً يسجل فيه اسماء الرجال من الضيوف، ولم يكن هذا موظفاً رسمياً بل هو أحد مستخدمي السيد جارفيس.

وإذ كانت هذه فكرة مسلية، ارتفع عدد المشتركين رغم أن الجياد التي كانت ستشترك في السباق كانت من الروعة، بحيث اعترف الدوق بأنه من الصعب أن يتكهن الناظر أي جواد سيكون الفائز.

كان من الممكن أن يشعر بكل هذه الحفاوة، لو لم تكن كرامته لمضيفه تزداد مع مرور كل دقيقة من هذا النهار، كما كان بينه وبين نفسه ينتقد كل ما كان يقوله، متشككاً في سلامة صدقه.

على كل حال، لم يكن ثمة ما يدعو إلى الشك في صدق الاستعدادات التي كانت تجري لاقامة الحفلة، ذلك المساء.

كانت الحديقة مزينة بالفوانيس الصينية، والأضواء تلتمع بين الأزهار وعلى جوانب الممرات، كما كانت أشهر فرق الموسيقى والتي كانت قد استقدمت من لندن، كانت تشنف الآذان بألحانها التي يفضلها الشباب كما كان الدوق يظن.

قال لوسيان للدوق وهما يصعدان إلى الطابق الأعلى

www.rewayti.net

لتغيير ملابسهما استعداداً للعشاء: «لا بد أنك تستمتع بكل هذا، يا ابن العم.»

أجاب الدوق: «هذا طبيعي.»

تبعه لوسيان إلى غرفته، وبعد أن خرج الخادم، قال: «أظن من السابق لأوانه أن أسألك عما إذا كنت قد قررت شيئاً نهائياً.»

«بخصوص الزواج؟»

«إنني أريد أن أعرض الزواج على كلاريبيل، بصفة رسمية، هذه الليلة في الحديقة.»

قال الدوق بتعالٍ: «إذا أنا سمحت لك بذلك، فسيبدو الأمر عادي ومبتذل.»

سأله لوسيان: «مبتذل؟ ماذا تعني بكلمة مبتذل هذه؟»

«الأمر واضح، يا فتاي العزيز. فالنجوم، والقمر والموسيقى، كل هذه ما هي إلا أشياء مسرحية.»

«وما الخطأ في هذا؟»

أجاب الدوق: «إذا أنا أردت أن أخطب فتاة، أريد ذلك أن يكون بشكل مبتكر، ما يجعلنا نتذكره طوال حياتنا.»

ساد صمت قصير قال لوسيان بعده: «لقد فهمت ما تعنيه.»

فتابع الدوق قائلاً: «طالما كنت أفكر في أنك تحب أن تتفوق في طريقة معينة تختص بك. وأنا لا أتصور لحظة في حياة المرء أكثر أهمية من اللحظة التي يطلب فيها من فتاة أن تعيش معه بقية حياته. عند ذلك عليك أن تظهر مدى قدرتك على الابداع وكذلك مبلغ ذكائك.»

قال ذلك وهو يخشى من أن يبدو مبالغاً في اطرائه

هذا، ما قد يرى لوسيان فيه شيئاً من السخرية، ولكنه ما لبث أن شعر بالارتياح وهو يرى الفتى قد تقبل الفكرة، ليقول باسماً: «الحق معك تماماً، يا ابن عمي فاليريان إنني لم أفكر في ذلك بهذا الشكل من قبل. فقد ذهبنا، أنا وكلاريبيل، معاً إلى عدد لا يحصى من الحفلات، فكانت كلها متشابهة.»

قال الدوق: «وهكذا كنت أنا أجدها دوماً.»

«أتراك إذن تقول إنني إذا فكرت في طريقة مبتكرة أعرض فيها الزواج على كلاريبيل، فستوافق أنت على زواجنا؟»

أجاب الدوق بسرعة: «لم أقل شيئاً كهذا. كل ما قلته هو أن الوقت ما زال مبكراً لهذا، وعلي أن أعرف كلاريبيل أكثر قليلاً قبل أن أعتبرها صالحة حقاً لتكون زوجتك.»

ردّد الفيسكونت قوله بذهول: «صالحة لتكون زوجتي؟ ولكنها أجمل فتاة في لندن.»

«وأنت في نظر الكثير من الناس أكثر الشبان وسامة، وأناقة بكل تأكيد.»

لم يكن الدوق ينظر إلى لوسيان وهو يقول هذا، ولكنه كان يعلم أن الزهو قد بدا عليه.

ثم قال بسرعة: «بما أن عقد ربطة العنق تستغرق الكثير من الوقت، فمن الأفضل أن تذهب لارتداء ثيابك. عليك ألا تتأخر عن موعد العشاء.»

أطلق الفيسكونت صيحة ذعر، ثم أسرع بمغادرة الغرفة. وعندما عاد هيبرت إلى الغرفة ليساعد سيده على خلع حذاء الركوب، كان هذا يبتسم.

www.rewayti.net

فقط عندما اغتسل وأوشك أن ينتهي من ارتداء ثيابه، سأله: «هل هناك أخبار لأجلي، يا هيبرت؟»

«لا شيء مهم، يا سيدي، فقط هنالك حديث تناهى إلى سمعي من أحد الرجال الذين جاؤوا من القرية للمساعدة.»

«إلى من كان يتكلم؟»

«إلى خادم يعمل هنا منذ سنوات وهو أكبر سناً من الآخرين.»

«ما الذي قالاه؟»

«لم يكونا يعلمان أنني كنت أستمع، ولكنك تعلم، يا سيدي، أنه لدي أذنين مرهفتين.»

فأومأ الدوق بينما تابع هيبرت يقول: لقد قال الرجل القادم من القرية: «سمعت بأنهم سيقيمون قريباً حفلة زفاف هنا. إنني أتطلع بشوق إلى ذلك. ولا شك أنه سيكون هناك وليمة كبيرة وألعاب نارية؟»

أجاب الخادم: «دون شك. ولكننا كنا ننتظر مثل ذلك منذ شهر أو نحوه.»

«أعلم ذلك. ما الذي حدث إذن؟»

«هذا ليس من شأنك.»

«يقولون في الفندق ان جايك تدخل في الأمر.»

أجاب الخادم: «سواء فعل أم لم يفعل، إقفل أنت فمك وإلا وقعت في المتاعب.»

قال هيبرت ذلك بلهجة مطابقة تماماً للهجة القروي العامية، ثم قال بعد ذلك ببساطة: «هذا كل شيء، يا سيدي الدوق.»

«ألديك فكرة عمن يكون جايك هذا؟»

«ليس حالياً، يا سيدي الدوق.»

«حاول أن تعرف ذلك.»

«سأفعل، يا سيدي الدوق.»

وغادر الدوق غرفته ليهبط السلم إلى غرفة الجلوس والتي وجدها، كما كان يتوقع، بالغة الازدحام رغم أنها أكثر غرف الجلوس في المنزل اتساعاً.

ورأى أن الفيسكونت كان متفوقاً بأناقته ووسامته على كل الشبان الموجودين، كما كانت كلاريبيل تبدو بين الشابات التي كانت تقف بينهن كزنبقة بين أزهار الأقحوان البرية.

وكان بجانب الدوق إلى مائدة العشاء، سيدتان بالغتي الجمال ممن كان يعرفهن في لندن، وعلم الآن أنهما من سكان الجوار.

قالت له إحداهما: «لقد قيل لنا ان الحفلة قد أقيمت على شرفك. ولم أصدق ذلك تماماً حتى وصلت إلى هنا. كنت أظنك لا تنزل ضيفاً إلا على أصدقائك الحميمين.»

أجاب الدوق: «هناك استثناء لكل قاعدة.»

فتابعت تقول: «لا بد أن لديك مبرراً لذلك.»

كانت تنظر، وهي تقول هذا، إلى كلاريبيل، ثم أضافت: «من المؤكد أنه ليس ضرورياً بالنسبة إليها أن تكون ثرية، خصوصاً وأن الفيسكونت شاب غني.»

قال الدوق ساخراً: «إنني لم أعرف شخصاً يعتبر نفسه غنياً.»

وكان الطعام يكاد يكون أفضل منه في الليلة السابقة. ومرة أخرى لم يتأخر الرجال في غرفة الطعام بل توجهوا بأجمعهم نحو قاعة الحفلة.

www.rewayti.net

ولم يكن لدى الدوق رغبة في البقاء مدة أطول مما هو ضروري.

فقد وجد نفسه متشوقاً إلى اللحظة التي يتمكن فيها من الهرب لرؤية جيونا.

ولكنه كان يعلم أن اختفاءه بشكل واضح هو خطأ قد ينتج عنه عاقبة بعيدة الأثر.

وعندما تقدم ليجلس إلى جانب كلاريبيل، لاحظ أنها أخذت تتحدث إليه بلهفة. وما لبثت أن قالت له بصوت ناعم: «أرجو أن تكون سيادتك مستمتعاً في هذه الحفلة، لقد بذل والدي كا ما في وسعه لارضائك، وكذلك أنا.»

أجاب: «إذا أنا لم أقدر ما بذلتماه من جهد، أكون في هذه الحالة، ناكراً للجميل.»

فقالت: «ونحن نقدرك.»

كانت تتكلم ببراءة حلوة يمكنها أن تخدع فيها أكثر الرجال حنكة فيراها طبيعية للغاية.

قال لها: «لقد كان لوسيان خائفاً من أن تستائي من مغادرة لندن إلى الريف.»

أجابت: «ما هذا الغباء منه؟ إنني أحب الريف. إنه رائع. وعندما أعود إلى بيتي هنا، أجد وقتاً للتفكير.»

«أتحبين ذلك حقاً؟»

«إنني طبعاً، بالنسبة إلى براعتك في كل شيء، أخشى أن تراني جاهلة رغم ثقافتي الواسعة في أمور كثيرة.»

كان كلامها بالغ اللباقة والاتقان، كما رأى الدوق، ولا بد ان السيد جارفيس كان قد وضعه بعناية فائقة، دون شك.

رد عليها بجواب مناسب. وإذ رأى سيدة أكبر سناً كان يعرفها، إستأذن من كلاريبيل وذهب ليحييها حيث وقفا معاً لفترة يتحادثان، ما لبث بعدها أن سار برفقتها إلى الحديقة.

أثناء ذلك كان منتبهاً إلى أن السيد جارفيس قد رآه وهو يخرج، فرأى أن هذه هي اللحظة الوحيدة التي يمكنه الهرب فيها إذا تمكن من ذلك ببراعة.

كان في الحديقة عدداً كبيراً من الرجال يقفون تحت الأشجار.

وحيث أن الجو كان شديد الحرارة، فقد فضل الكثير من المدعوين الخروج إلى الحديقة. وما أن خرج الدوق وبجانبه السيدة حتى توجه نحو رجلين كان يعرفهما جيداً. بادر أقرب الرجلين إليه، بقوله: «مرحبا، يا داوليش. من لك أن تتكرم باحضار كوبين من المرطبات لي ولرفيقي؟»

ابتسم داوليش بينما التفت الدوق إلى رفيقته متسائلاً: «أظنكما تعرفان بعضكما البعض؟»

ولم تمض لحظة قصيرة حتى قال الدوق: «أرجو المعذرة لحظة. هناك رجل في تلك الناحية علي أن أتحدث إليه.»

فقالت السيدة ماري: «رجل أم امرأة؟»

أجاب الدوق: «إنه حتماً رجل والحديث هو حتماً عن الخيل.» فضحك الجميع بينما ابتعد هو عنهم وتوارى بين الظلال، ومن ثم أسرع نحو الجزء غير المضاء من الحديقة والمؤدي إلى الشلال.

www.rewayti.net

وجد الدرجات، وإذ كان يعلم مبلغ تأخر الوقت فقد كاد يجتاز الغابة ركضاً.

كان القمر والنجوم المتألقة في كبد السماء قد جعلت المنظر الذي كان رآه الليلة الماضية في ساعة الغروب، أروع مظهراً هذه الليلة. ولكن عيني الدوق كانتا لا تبحثان إلا عن جذع شجرة ساقطة إلى الناحية اليمنى. وسرعان ما تنفس بارتياح وهو يرى جيونا ما زالت هناك.

قال وهو يجلس إلى جانبها: «مساء الخير. كان من الصعب علي الابتعاد من الحفلة.»

«كنت أعلم ذلك، ولم أكن أتوقع قدومك في الواقع. وبجانب هذا، كنت واثقة تماماً من أنك لم تكن سوى... حلم.»

«لقد أكدت لك أنني حقيقي تماماً، وقد كنت أفكر فيك.»

ورأى عينيها تشعان، وكان وجهها يبدو بالغ الشحوب. وخيل إليه أنها تبدو أكثر نحولاً مما بدت عليه الليلة الماضية.

سألها: «هل أكلت شيئاً هذا النهار؟»

ضحكت ضحكة قصيرة: «كيف يمكنك التفكير في أشياء كهذه؟ بينما في الواقع، لقد نسيني كل شخص لأنهم كانوا منشغلين جداً.»

أخرج الدوق شيئاً من جيب سترته المسائية، وقال: «ظننت أن ذلك سيحدث، ولذلك أحضرت لك هذا.»

وأثناء كلامه وضع على ركبتيها احدى مناديله الثمينة وقد لفّ فيها عدداً من الشطائر. وكان أثناء انشغال الجميع

في الحفلة، قد وجد في احدى غرف الجلوس، وكانت خالية في تلك اللحظة، طبقاً يحتوي على الشطائر فأسرع بافراغها جميعاً في منديله.

نظرت جيونا إليها، ثم سألته: «أهي شطائر بالجبنة؟»

«نعم.»

«كيف تمكنت من أن تفكر في شيء رائع كهذا؟ لقد كدت أنسى كيف هو مذاقها، ما عدا أنني أحياناً في الليالي، أوهم نفسي بأنني آكلها مرة أخرى بدلاً من فضلات طعام الخدم التي يحملونها إلي.»

فقال: «كنت أعلم أنك ستسرين بهذه الشطائر.»

عادت تلفها بالمنديل وهي تقول: «لن آكلها الآن لأنني أريد أن أتلذذ بطعم كل لقمة منها، وهذا ما لا أستطيعه وأنت بجانبي.»

«والآن، اسمعي ما جئت لأخبرك به. إنني سأغادر هذا المنزل صباح الاثنين حوالي الساعة الثامنة والنصف، معتذراً بأنني مستعجل للوصول إلى لندن.»

تسمرت جيونا في مكانها وكأنها كانت تفكر في أنها لن تراه بعد ذلك أبداً، ولكنه تابع يقول: «وستأتين أنت معي.»

«هل... هل تعني ذلك... حقاً؟»

«كل ما علينا أن نتفق عليه هو المكان الذي سآخذك منه.»

فكرت جيونا لحظة، ثم قالت: «هنالك مجموعة كثيفة من الأشجار على بعد مائتين أو ثلاثمائة ياردة من مساكن المستخدمين يحيط بها سياج سهل تسلقه.»

www.rewayti.net

«هل ستكونين هناك؟»

«هذا إذا كنت... تريد أن تأخذني... معك حقاً.»

«إنك تعلمين أنني لا أخلف بوعدي أبداً.»

«لن أتمكن من احضار سوى القليل جداً من أمتعتي.»

فقال: «لا حاجة بك لاحضار أي شيء. هذا إلى أن ذلك سيثير شكوك كل من يراك تتركين المنزل حاملة حقيبة.»

«لقد فكرت في ذلك أنا أيضاً.»

«إذن، تتمشين مبتعدة عن المنزل وكأنك تتنزهين. وسأتولى أنا كل شيء.»

فشبكت يديها قائلة: «إنني أحلم... أنا أعلم أنني أحلم...»

قال بحزم: «بل أنت مستيقظة. وعليك أن تستعملي كل ذكائك لكي لا تدعي شيئاً يعيقك عن الوصول إلى المكان الذي وصفته لي.»

«لن أتمكن أبداً... من ايفائك حقك... من الشكر.»

«لا وقت لذلك الآن. وأظن من الخطأ أن آتي لرؤيتك ليلة غد مرة أخرى رغم رغبتي في هذا.»

فأومأت برأسها.

كانت تنظر إليه بعينين مليئتين بالثقة ما ملأه تأثراً.

قال لها: «ابتعدي عن طريق السيد جارفيس غداً. وتذكري دوماً أن أكثر الساعات ظلاماً هي ما تسبق الفجر.»

فقالت: «إنها لم تعد... مظلمة كما كانت.. فمنذ لقائنا الليلة الماضية... ملأ الأمل قلبي.»

قال الدوق: «استمري في املك هذا إلى صباح الاثنين. أما الآن فعلي أن أتركك.»

«نعم... بالطبع.»

«هل خفّت الآلام في ظهرك؟»

أجابت: «نعم أكثر بكثير.»

لكنه أدرك أنها إنما تتظاهر بالشجاعة. فقال: «سأكون في انتظارك صباح الاثنين، إلى اللقاء.»

ابتسمت، وعندما وقف ليذهب، سألها: «بالمناسبة، هنالك شخص موظف في المنزل هنا، أو ربما خارجه، واسمه جايك، فمن هو؟»

أدرك الدوق من الطريقة التي اجفلت فيها جيونا، بأنها دهشت لهذا السؤال. وسألته: «لماذا تريد أن تعرف؟»

«أهناك أي سبب يمنعك من اخباري من هو؟»

«ك... كلا... لا شيء هناك.»

انتظر الدوق لحظة قالت بعدها: «أظنك تتحدث عن جايك وانتسمان.»

«ما هو عمله؟ هل هو موظف عند السيد جارفيس؟»

«إنه يروض الخيل... ويدربها.»

«أثمة شيء آخر؟»

«أظن عليك أن تسأل عنه... شخصاً آخر.»

«إنني أسألك أنت، لأن سؤالي عن أي من مستخدمي السيد جارفيس، سيثير شكوكه.»

بعد أن قال هذا، فكر الدوق في أنه قد يكون في سؤاله هذا استغلالاً غير حسن لها ولكن من جهة أخرى كان هذا شيء آخر يلفه الغموض، وكلما أسرع بالكشف عنه كان ذلك أفضل.

كانت جيونا تدرك ما يريد أن يعرفه من وراء سؤاله هذا،

www.rewayti.net

فقالت بعد أن ألقت عليه نظرة خاطفة: «إنه... يعطي... كلاريبيل... دروساً في ركوب الخيل.»

«شكراً.»

لقد عرف الدوق ما كان يريد أن يعرفه، ورأى أن هذا شيء كان عليه أن يدركه بنفسه.

كانت جيونا قد وقفت لتقف بجانبه، فرأى على ضوء القمر مبلغ نحولها. وبدت في ثوبها الرمادي وكأنها جزء من الظلال.

لمعان عيناها وحده هو الذي كان يطمئنه إلى أنها لم تكن مجرد الظلال.

قال بصوت أجش: «تصبحين على خير، يا جيونا. اعتني بنفسك حتى صباح الاثنين، لأن أمامنا رحلة طويلة ولا أريد أن يغمى عليك بين يدي.»

فقالت: «لن يحدث هذا لي. وشكراً للشطائر.»

«أرجو أن يكون هناك أكثر من شطائر بسيطة لتشكريني عليها، في الأيام القليلة المقبلة.»

ثم أسرع مبتعداً خلال الاشجار، ولم تعد جيونا للجلوس على جذع الشجرة إلا بعد أن ابتعد عن ناظريها ولم تعد تسمع وقع خطواته.

نظرت طويلاً إلى الوادي تحتها والذي يغمره نور القمر، ثم ما لبثت أن تنهدت وهي تعود أدراجها نحو المنزل.

* * *

لم يستيقظ أحد باكراً في صباح اليوم التالي حيث أن الحفلة لم تنته إلا عند بزوغ الفجر.

وقد ذهب الدوق إلى نزهته الصباحية متأخراً ساعة كاملة عن عادته، وقد امتلأ ذهنه بمشاكل جيونا، والسيد جارفيس، ولوسيان الذي يبدو أن تعلقه بكلاريبيل يزداد في كل لحظة.

على كل حال، لم يشعر أحد بأنه من الممكن أن يكون ثمة ما يشغله سوى مشاركة أولئك السادة الذين انضم إليهم في غرفة الافطار.

تناول فطوراً ممتازاً مع قهوته المعتادة، ثم ترك الغرفة ليرى ما إذا كانت صحف الصباح قد وصلت.

وأخبره رئيس الخدم أن صحف اليوم والأمس موجودة في غرفة المكتبة. وسر الدوق ليس لوجود الصحف فقط، وإنما لعدم وجود أحد يعكر عليه صفو أفكاره.

وهكذا جلس يقرأ التقارير البرلمانية وأخبار رياضة الفروسية. وكان قد فرغ لتوه من هذه الأخيرة عندما دخل السيد جارفيس الغرفة.

قال له:

«سمعت أنك هنا فجئت لأخبرك بأننا ذاهبين إلى الاصطبل حيث يروض أحد رجالي جواداً جديداً. إنه حيوان فاخر أظن قد تهمك رؤيته.»

وفعلاً كان هذا يهم الدوق كثيراً، لذا وقف ليتبع السيد جارفيس دون أن يوجه إليه أي سؤال.

وعندما وصلا إلى المرعى الممتد خلف الاصطبل سمع السيد جارفيس يقول للرجل الذي كان بانتظارهما.

«أخرج روفوس. يا جايك، لكي نرى ما قمت به.»

www.rewayti.net

لقد سمع الدوق ما كان يرجوه ويتوقعه بالضبط. وكان اهتمامه موجهاً إلى الرجل الذي يمسك بالحصان، أكثر منه إلى الحصان نفسه.

كان جايك هانتسمان، والذي كان يبدو فوق الثلاثين، رجلاً وسيماً فظاً بعض الشيء إلى شيء من الوقاحة.

كان ضامر الجسم عريض الكتفين، ومع أنه لم يكن من طبقة الاسياد بالطبع، إلا أنه كان يبدو فوق مستوى السائسين العاملين في الاصطبل.

لاحظ الدوق أنه يستعمل عنفاً لا ضرورة له بمهمازه وسوطه بالنسبة لحيوان فتي كهذا.

أخذا ينظران حوالي العشرين دقيقة إلى أن قال السيد جارفيس، لظنه بأن الدوق قد يكون أدركه السأم: «لدي عدة أجياد أخرى كانت أمس خرجت لترعى العشب. ولكنني طلبت منهم احضارها لكي تراها.»

قال الدوق مازحاً: «لدي شعور بأنك تحاول أن تشعرني بالغيرة.»

«بالعكس. فما زلت مهتماً بفكرة قيام تعاون بيننا.»

تساءل الدوق عما عسى أن يقول السيد جارفيس لو أنه رد عليه قائلاً بأنه يفضل على ذلك التعاون مع اصغر المستخدمين لديه.

ولكنه، بدلاً من ذلك، أجاب بلهجة غامضة: «إنني دوماً أهتم بالأفكار الجديدة.»

ثم غير الموضوع بسؤاله السيد جارفيس عن الحصان الذي سيدخله سباق أسكوت.

ومرت ساعات النهار بطيئة بالنسبة إلى الدوق، بينما

كان يلاحظ جيداً كيف أن لوسيان يزداد تعلقه بكلاريبيل مع كل لحظة تمر.

كانا يجلسا معاً، يتحدثان معاً، وفي بعد الظهر يذهبان للنزهة في احدى عربات السيد جارفيس المكشوفة.

وإلى مائدة العشاء، كان مكان الفيسكونت الطبيعي إلى يمين كلاريبيل، ولم تكن هي تحاول أن تتحدث إلى الرجل الذي إلى يسارها.

وبعد العشاء، توزع بعض الضيوف على الشرفة الخارجية، فقال احد اصدقاء الدوق: «لقد أصبحت كبير السن بالنسبة إلى السهر.»

ولم يكن هو الشخص الوحيد، ذلك أن النساء لم يكن بنفس الجمال الذي ظهرن به الليلة السابقة، وكن قد ابتدأن يصعدن السلم وأغلبهن يحملن في أيديهن شموعاً بحوامل ذهبية.

كان هيبرت ينتظر في غرفة سيده، ولكن عندما تقدم لينزع عن الدوق سترته، رفع الدوق يده يمنعه من ذلك قائلاً له بصوت خافت: «ما أريده منك يا هيبرت، هو أن تجد لي طريقة أذهب بها إلى الاصطبل دون أن يراني أحد. كيف يمكنني ذلك؟»

«هل هو شيء يمكنني أن أنوب فيه عنك يا سيدي؟»

«كلا، أريد أن أذهب بنفسي.»

«الأفضل أن تنتظر قليلاً يا سيدي.»

فقال الدوق: «موافق، على ألا تتأخر.»

تركه هيبرت، ثم عاد إليه بعد حوالي عشر دقائق.

لم تكن ثمة حاجة إلى أن يتكلم أي منهما، فقد تبع الدوق

www.rewayti.net

هيبرت بصمت، مجتازين الممر الرئيسي حيث كانت نصف الشموع قد أطفئت، ليهبطا بعد ذلك سلماً ضيقاً إلى الطابق الأرضي، ومن ثم سارا خلال ممرات ملتوية إلى أن وصلا إلى باب سحب هيبرت المزلاج عنه ثم فتحه أمام الدوق ليخرج منه ثم سأله هامساً: «هل ستتمكن من العثور على طريقك عند العودة يا سيدي؟»

وفكر الدوق في أنه، ما دام قد استطاع العثور على طريقه في أنحاء فرنسا والبرتغال مستعيناً على ذلك بخرائط غير وافية كان الجنود يزودون بها، فالأحرى به أن يجد طريق العودة إلى غرفة نومه في منزل أبراج ستامفورد.

وفي الخارج تحول إلى اليمين حيث انطلق نحو الاصطبل.

كان هذا الصباح قد لاحظ وجود مخزن كبير مليء بالتبن يقع بين الاشجار.

لم يكن يبدو على أنه قيد الاستعمال أو لعل التبن فيه هو للطوارىء فقط، ولكن خطر في بال الدوق أنه من الممكن أن يكون مكاناً شاعرياً تماماً للمقابلات قرب المنزل.

تقدم نحوه مستتراً بالظلال إلى أن وجد أخيراً مكاناً يصلح للاختباء فيه، ويقع خلف بعض الشجيرات المتشابكة، وهناك جلس بكل راحة، علماً منه بأنه، إذا كان مخطئاً في ما افترضه فعليه أن ينتظر طويلاً، ما سيكون في ذلك مضيعة للوقت.

ومع ذلك، فكر بأنه يسير في الطريق الصحيح.

بعد انتظاره ما يقارب الربع ساعة، سمع صوتاً من ناحية المنزل، وسرعان ما خرجت من باب جانبي امرأة ترتدي

كاب من القطيفة قاتم اللون وذلك فوق ثوب للسهرة أبيض اللون.

سارت كلاريبيل، كما عرف فيها الدوق، بمحاذاة سياج من الزهور كانت تخيم عليه أشجار الكستناء.

وعندما أوشكت على الوصول إلى المخزن، رأى الدوق شخصاً يخرج منه ويقف في انتظارها.

وبلمحة سريعة، أدرك أنه جايك هانتسمان، فانتظر ثوان إلى أن غابا في الداخل. ثم وبسرعة وسكون بالغين، عاد أدراجه إلى المنزل حيث اجتاز الممرات ثم صعد السلم إلى حيث الممر الرئيسي حيث كانت غرفته.

لم يقف عندها، بل أسرع متابعاً إلى حيث كان يعلم بأنها غرفة لوسيان.

تردد لحظة واحدة عند الباب، متسائلاً عما إذا كان يقوم بالعمل الصحيح.

كان في ازالة الغشاوة عن العينين، كما كان الدوق قد جرب ذلك في احدى المرات بنفسه، كان في منتهى الألم، ما سيترك في النفس أثراً لمدة طويلة.

ولكن البديل لذلك كان أسوأ. ألا وهو الزواج من امرأة ذات علاقات غير شريفة ومع ذلك تقسم يمين الوفاء إلى الأبد عند عقد الزواج، وما زالت على معرفة برجل آخر.

وأطبق الدوق شفتيه بحزم قبل أن يفتح الباب دون أن يقرعه.

* * *

عندما أوى لوسيان إلى فراشه، لم يكن شاعراً

www.rewayti.net

بالتعب. فقد كان ممتلئاً بهجة لما كانت كلاريبيل قد حدثته به.

كانت قد قالت له بصوتها الناعم العذب: «فكر كم سنكون سعداء عندما نتزوج. سيمكننا، حينذاك، أن نقيم الحفلات، حتى أكبر وأجمل من الحفلة التي أقامها والدي في الليلة الماضية.»

فقال لوسيان: «إن الحفلات لا تهمني. كوني معك هو ما أريده فقط.»

قالت: «سنكون معاً. ولكن سيكون من المبهج تماماً أن نستضيف الدوق وصيك، وننزل عنده ضيوفاً بدورنا.»

فقال: «أريد أن أريك منزل وأملاك ألفرستود ولكن أهم شيء عندي هو مقر أسرتي منزل فروم إنه ليس كبيراً أو فخماً، ولكنه رائع الجمال، وعندما كانت أمي ما زالت حية، كان الجميع يقولون إن حفلات منزل فروم هي أكثر بهجة من أي حفلة أخرى في أي مكان.»

فسألته: «هل كنتم تستضيفون أفراد الأسرة المالكة؟»

أجاب: «إن أفراد الأسرة المالكة يثيرون السأم، إذ يلزم لاستضافتهم أبهة وفي ظروف خاصة.»

فقالت: «إنني أحب ذلك رغم كل شيء. وستتدبر أنت تنظيم ذلك لأجلي، أليس كذلك؟»

أجاب بحرارة: «إنك تعلمين بأنني أفعل أي شيء تريدينه. فقط قولي إنك تحبينني وأن ليس ثمة رجل آخر تشعرين نحوه بنفس الشيء.»

فقالت: «إنك تعلم أنني أحبك. ولكن عليك ألا تكون غيوراً.»

عندما عاد إلى غرفته خلع سترته ثم جلس ينظم شعراً في كلاريبيل.

وكان يفكر في أن يطلب من الخدم بأن يضعوها على صينية فطورها صباح الغد، وأخذ يتصور مبلغ ما ستبدو عليه من حلاوة عندما تقرأه.

وعلى كل حال، فقد وجد أن نظم الشعر أصعب قليلاً مما كان يتوقع، وكان قد رضي عن بيتين فقط مما كتب، عندما فتح باب الغرفة فجأة وبرز أمامه الدوق، ما جعل الدهشة تشله.

وضع القلم من يده وهو يتساءل عما جاء بالوصي عليه في هذه اللحظة.

ازدادت دهشته عندما أغلق الدوق الباب خلفه بهدوء تام، ثم أقبل نحوه يقول بصوت منخفض: «أريدك أن تأتي معي يا لوسيان، فهناك شيء أريدك أن تراه.»

«في هذه الساعة من الليل؟»

«أنا أعلم أن الوقت متأخر، ولكن الأمر هام.»

قال لوسيان: «سأفعل ما تريده طبعاً، ولكنني لا أستطيع أن أتصور...»

قال الدوق: «فلنسرع، كما أنني أريدك أن تعدني بألا تنطق بأية كلمة منذ اللحظة التي نترك فيها هذه الغرفة.»

«ولكن لماذا؟»

«عدني فقط.»

«سأعدك طبعاً إذا شئت... ولكنني أريد أن أفهم...»

قال الدوق بسرعة:

www.rewayti.net

«لا وقت هناك للشرح تعال معي، ومهما حدث، ومهما رأيت، تذكر أنك مرتبط بوعدك لي بألا تقول أو تفعل أي شيء.»

فابتسم الفيسكونت: «يا لها من أسرار.»

على كل حال فقد ابتدأ الفضول يتملكه. فعاد يرتدي سترته، ثم فتح الدوق الباب وسار أمامه في الممر.

اجتاز مرة أخرى السلم ثم الممرات الملتوية ليخرجا بعد ذلك من الباب الذي كان قد تركه مفتوحاً.

وعندما تبعه لوسيان إلى خلف مجموعة الشجيرات انتبه الدوق إلى أن القمر كان قد اعتلى الآن قبة السماء فوق الرؤوس مباشرة، ما أصبح معه المخزن مضاء متألقاً كما لو كان أثناء النهار.

وكان الفيسكونت يجيل النظر حوله بدهشة بالغة. لم يستطع أن يفهم السبب الذي جعل الوصي عليه يحضره إلى هنا في منتصف الليل دون سبب واضح.

ولكنه ما لبث أن حدث نفسه بأنه لا بد هناك سبباً قوياً لذلك، أما ما هو ذلك السبب، فهذا ما ليس لديه أقل فكرة عنه.

ولكن، حيث أن المفروض فيه الانتظار، بإمكانه أيضاً أن يحاول انهاء قصيدة الشعر التي تعتمل في ذهنه،فيستطيع عند ذلك، أن يدونها حالما يسمح له الدوق بالعودة إلى غرفته.

وفي الوقت الذي أضاف فيه ثلاثة أبيات إلى ما سبق ونظمه، كان قد أخذ يشعر بالتعب نوعاً ما، من الوقوف لهذه المدة الطويلة.

وفجأة، انتبه إلى أن الدوق قد تبدلت ملامح وجهه، فتابع اتجاه عينيه ليتسمر بعدها في مكانه.

ذلك أن شخصين قد ظهرا فجأة ناحية المخزن الذي كان أمامه مباشرة.

لقد كان الكاب المخملي الداكن هو نفسه الذي كان ساعد كلاريبيل على ارتدائه ذلك المساء بعد نزهة في الحديقة قالت بعدها بأنها تشعر بالبرد.

لقد كان قد وضعه على كتفيها بعناية شديدة، وكانت هي قد شكرته بطريقة لطيفة ورائعة.

وها هو ذا الآن يراها تتحدث إلى رجل لا يعرفه، ولكنه كان واثقاً من أنه ليس من ضمن ضيوف الحفلة.

تقدمت كلاريبيل خطوة إلى الأمام، ما أتاح للوسيان أن يرى، وقد تملكته الدهشة، أن الرجل كان في ملابس الركوب.

ثم، وبينما كان يتساءل عن سبب وجود كلاريبيل هنا وعما تفعله، إذا بها تستدير إلى الرجل ذاك ثم تضع ذراعيها حول عنقه.

أما ما جرى بعد ذلك فلم يستطع الفيسكونت أن يتابعه إلى النهاية، فأغمض عينيه شاعراً وكأن قضيباً من الحديد المحمى يلسع جبينه.

لقد كان يهمّ بالاندفاع إلى الأمام لو لم يمسك الدوق به، والذي كان يتوقع منه هذا، فأمسك بمعصمه بقبضة من حديد.

عند ذلك تذكر لوسيان وعده بألا ينطق بكلمة أو يأتي بأية حركة مهما حدث.

www.rewayti.net

ثم انفصلا، فاستدارت كلاريبيل وركضت بسرعة عائدة إلى حيث السياج المشجر تظلله أشجار الكستناء، ومن ثم اختفت عن الأنظار.

تثاءب جايك هانتسمان قبل أن يستدير، لا ليدخل المخزن ولكن ليتوجه إلى الاصطبل.

وعندما أصبح بعيداً عن الأنظار، عند ذلك فقط ارخى الدوق قبضته عن معصم لوسيان ثم سار أمامه عائدين إلى المنزل.

الفصل الرابع

لم ينطق الدوق ولا الفيسكونت بكلمة واحدة، إلى أن وصلا إلى غرفة هذا الأخير.

عند ذلك دخل الفيسكونت متمهلاً رافعاً رأسه بكبرياء وهو يقول: «إنني راحل.»

كان صوته خشناً، ولم يكن الدوق غافلاً عن مقدار ما يشعر به من ألم، فقال بهدوء: «أظن هذا خطأ.»

«إذا كنت تظن أنني سأبقى هنا وأقابل تلك المرأة مرة أخرى، فأنت مخطىء جداً، لقد كانت تكذب عليّ، وتتظاهر، وطوال الوقت...»

خانته الكلمات، وقبض على يديه بشدة محاولاً تمالك نفسه ولكن صوته تحطم عند الكلمة الأخيرة.

فقال الدوق: «من الخطأ أن يكون لديهما أدنى فكرة عن شعورك هذا وعما اكتشفته.»

تمتم الفيسكونت وهو يصرف بأسنانه: «أريد أن أواجههما بذلك.»

«أنا واثق من رغبتك هذه، وهذا ما أتمنى القيام به أنا نفسي، ولكنك ستثأر لنفسك، أؤكد لك ذلك، إنما ليس الآن.»

أدرك أن الفيسكونت لا ينتبه إليه، ولكنه تابع بعد لحظة: «إنني أقترح أن نغادر بكرامة دون أن يكون لدى السيد جارفيس أو ابنته أية فكرة عما اكتشفناه، وسأكون شاكراً لو ذهبت أنت بعربتي المكشوفة إلى لندن.»

www.rewayti.net

مضت لحظة لم يستطع ذهن الفيسكونت المصدوم من أن يستوعب ما قاله الدوق. ولكنه ما لبث أن قال له وكأنه لم يصدق ما سمع: «أتريدني أن أذهب بعربتك المكشوفة؟»

«نعم.»

«ولكنك لا تسمح أبداً بأن يقود عرباتك أي شخص غيرك.»

«في هذه المناسبة من المهم بالنسبة إليّ، أن تقود عربتي هذه. أما أنا فقد أرسلت أطلب عربتي المقفلة، إذ عليّ القيام بزيارة إلى منطقة أخرى من الريف قبل أن أعود إلى لندن.»

الشيء الوحيد الذي كان من الممكن أن يرفه عن مشاعر الفيسكونت، في هذه اللحظة بالذات، كان تصوره لنفسه وهو يقود جياد الدوق الفائقة بأصالتها والتي هي مثار حسد كل أصحاب الخيول.

وكان معروفاً، كذلك، أن الدوق لم يكن ليسمح لأحد غيره بأن يقود عربته الفاخرة تلك.

وإذ أدرك الدوق أنه استولى على انتباه لوسيان، تابع يقول: «سنفترق عند الساعة الثامنة والنصف. وسيوقظك هيبرت الساعة السابعة. إننا سنغادر مضيفنا معتقداً بأن الزيارة كانت ناجحة، ولن يبدأ بالقلق إلا عندما يراك قد توقفت عن الاتصال بابنته، وكذلك هي، وسيستبد به القلق لما قد يكون قد حدث.»

وإذ فكر الفيسكونت أن هذا سيزعج حتماً كلاريبيل، بدت في عينيه نظرة قاسية أدرك الدوق منها أنه الآن متعطش للانتقام.

فقال له: «دعني أطمئنك إلى أنه لديّ أنا أيضاً ثأراً على السيد جارفيس يماثل ثأرك، عليّ تصفيته. وأنا فقط بانتظار مجموعة من التفاصيل ضده ومن ثم سأدمره تدميراً كاملاً.»

«أتعني ذلك حقاً.»

«إنني لا أتكلم عن طيش.»

«أخبرني إذن عما تنوي القيام به.»

أجاب الدوق: «كل شيء في الوقت المناسب. وعندما تسمعه ستدرك، رغم أنك قد تراه صعباً حالياً، انك كنت محظوظاً إذ نجوت بنفسك.»

ولم يقل أكثر من ذلك، بل فتح الباب، ثم أومأ للوسيان مودعاً وهو يتركه لمشاعر الحزن واليأس. كان يعلم أن هذا ما يتملك كل شاب يقع في الحب ثم يعلم فيما بعد أنه كان مخدوعاً.

وعندما وصل إلى غرفته، أخذ يفكر في جيونا، آملاً بحرارة أدهشته، بألا يمنعها شيء عن الوصول إلى الغابة حيث موعدهما عند الصباح.

* * *

كانت عربة الدوق، والتي هي أسرع عربة عنده بجواديها الأصيلين الفاخرين، تندفع بأقصى سرعتها مجتازة الريف بينما كان يفكر كيف أن كل شيء حدث معه بيسر وسهولة ما كان ليجرؤ على توقعهما.

عندما تناول هو ولوسيان طعام الافطار في الساعة الثامنة صباحاً، لم يكن في غرفة الافطار أحد غيرهما،

www.rewayti.net

وفقط عندما غادرا الغرفة متجهين نحو الردهة، كان السيد جارفيس يهبط السلالم بسرعة.

هتف قبل أن يصل إلى الدرجة الأخيرة: «لم أكن أعلم أنكما سترحلان باكراً بهذا الشكل. لا أدري لماذا لم أعلم بذلك.»

أجاب الدوق: «ظننتك تعلم بأن عليّ الوصول إلى لندن بأقصى سرعة ممكنة، فأنت تعلم، كما أعلم، بأن الأمير لا يحب الانتظار.»

لم يكن لدى السيد جارفيس جواب على هذا، فالتفت نحو الفيسكونت يسأله: «لماذا عليك أن تذهب أنت أيضاً؟ إنني أعلم أن كلاريبيل تتوقع منك البقاء إلى حين الغداء.»

شعر الدوق بأن لوسيان قد تبدلت ملامحه حين تحدث إليه السيد جارفيس، وإذ خشي مما قد يقوله، أجاب هو قائلاً: «إن لوسيان يسدي إليّ فضلاً بقيادته لعربتي المكشوفة، وثمة سبب آخر للرحيل في وقت مبكر وهو أن عليّ المرور في طريقي على قريبة لي مسنة وهي عليلة الصحة، هذا شيء يبعث في نفسي السأم، ولكنه واجب لا يمكن تجنبه.»

فقال السيد جارفيس: «إنني متفهم تماماً.» ولكن صوته لم يكن يوحي بشيء من هذا.

كان في الواقع، ينظر إلى ضيفيه وعلى ملامح وجهه ما أنبأ الدوق بوضوح بأنه منزعج لرحيلهما المفاجيء هذا.

وما كان أكثر ازعاجاً له هو أن الفيسكونت لم يطلب منه يد ابنته رسمياً.

قال الدوق وهو يتقدم نحو باب الخروج: «لقد كانت زيارة ممتعة للغاية. وأهنئك مرة أخرى على شيئين، منزلك وجمال حديقتك.»

لم يجب السيد جارفيس حيث أنه كان سائراً بجانب الفيسكونت خلف الدوق.

وكان يقول له: «ستصاب كلاريبيل بخيبة أمل لعودتك إلى لندن بهذه السرعة، ولكنني أرجو أن تتمكن من تناول العشاء معنا غداً. إننا سنكون بانتظارك.»

كان الفيسكونت على وشك الرفض عندما التفت الدوق إليه قليلاً، فتراجع عما كان على وشك قوله، ليقول متمتماً: «هذا لطف منك.»

ثم، وقبل أن يقول السيد جارفيس شيئاً آخر، قفز إلى عربة الدوق المكشوفة متناولاً اللجام بلهفة واضحة.

وقف الدوق لحظة ليقول لسائسه متمتماً: «انتبه إلى ألا يقفز الفيسكونت بالجياد، يا بن.»

ثم سار بضع خطوات إلى عربته حيث ناوله سائسه الثاني اللجام، ثم قفز إلى المقعد الصغير خلفه.

كان الجوادان يمتلآن حيوية ومن الصعب السيطرة عليهما، ولكن الدوق استطاع أن يجد وقتاً لاحظ فيه أن السيد جارفيس والذي كان ما يزال واقفاً على الدرجات ينظر إليهما، مقطب الجبين بينما الحيرة تكسو ملامح وجهه.

لحق الدوق بالعربة المكشوفة التي أمامه إلى أن مروا من خلال البوابات الواسعة المزخرفة فلاحظ بارتياح بالغ، أن الطريق المترب خارجها كان خالياً، كما أنه لم يكن ثمة مساكن في الأنحاء.

www.rewayti.net

كان من السهل رؤية حيث ينتهي جدار المزرعة المرتفع ليبدأ السياج الخشبي الذي يحيط بالغابة، فجذب جواديه ببطء وكأنه يوشك أن يقف وهو يقول لسائسه: «اجذب غطاء العربة، يا بن.»

وخيّل إليه أن سائسه سيندهش لهذا، فمن المعروف عنه أنه يفضل عربته مكشوفة على الدوام، إلا إذا كانت السماء ممطرة.

نزل السائس إلى الأرض لكي يجذب الغطاء الذي كان مصمماً ببراعة بحيث لا يتسبب إلا بأقل ما يمكن من تخفيض سرعة العربة، ورأى الدوق جسماً خفيفاً يتسلق فوق السياج الخشبي الذي يحيط بالأشجار ثم يركض نحوه فوق الحشائش الخشنة.

ولم يضيع الوقت بالكلام، بل مدّ يده يجرها إلى المقعد الذي بجانبه، ثم تابع التقدم دون ان يمنح بن الوقت الكافي لكي يتسلق إلى مقعده في الخلف.

ساروا لفترة صامتين كان الدوق أثناءها قد لاحظ أن جيونا كانت تلهث، ليس من سرعتها وهي تركض نحوه، بقدر ما كان الحماس الذي تشعر به.

ألقى عليها نظرة خاطفة فرأى عينيها تلتمعان كما كان هناك احمرار خفيف يكسو وجنتيها الشاحبتين.

أدرك، كذلك وهو يراها في ضوء النهار، انها كانت نحيلة الجسم إلى حدّ مؤلم، كما كانت عظام رسغيها ناتئة بحيث نكرته بما كان قد لاحظه بين الأولاد في البرتغال، بعد انسحاب الفرنسيين، آخذين معهم كل الأغذية الموجودة.

كانت ما تزال مرتدية نفس الثوب الرمادي الذي رآها ترتديه من قبل، ولكنها الآن كانت تضع على كتفيها وشاحاً صغيراً من الصوف، ورأى أن في حماية نفسها من البرد أثناء الرحلة الطويلة التي أمامهم، ما يدل على تعقلها.

لم تكن تعتمر قبعة. ولأول مرة استطاع أن يرى لون شعرها، لم يكن قاتماً كما كان يتوقع، ولكنه كان لوناً يمكن للمرء أن يصفه بلون الرماد، ولكنه كان أكثر جمالاً بكثير مما توحي به هذه الكلمة، إذ كان يبدو وكأنه يحتوي بين خصلاته الضياء والظلام معاً، وكأنما الظل وأشعة الشمس قد اتحدا ليؤلفا لوناً لم يسبق له رؤيته في شعر امرأة، وكان يؤلف إطاراً رائعاً لعينيها اللتين كانتا بلون ريش حمامة رمادية.

«لا أكاد أصدق ذلك... أتراني حقاً... مخلفة كل تلك التعاسة... واليأس... ورائي؟»

فقال: «أقسم لك بأنه لن يضربك أحد بعد الآن، والمستقبل الذي أتصوره لك أعتقد أنه سيمحو كل آثار الماضي.»

«ما هذا الحظ الرائع الذي جعلني أتواجد... في ذلك المكان... عندما جئت أنت... من خلال الغابة... لتتمتع بمنظر... غروب الشمس؟»

نظر إليها باسماً، ثم عاد الصمت يكتنفهما، الدوق مستمتع بكفاءة الجوادين، وجيونا تدرك أن كل ميل كانت تجتازه العربة كان يزيد في ابتعادها عن طغيان عمها، ولكنها عندما رأت فندقاً أمامهم، والدوق يبطيء من سير الجوادين، نظرت إليه مستطلعة، فقال: «إنني واثق تماماً من انك جائعة ولم تتناولي فطوراً قبل مغادرتك.»

www.rewayti.net

«حتى ولو كان هناك فطور، لما تمكنت من تناول شيء منه لشدة حماسي وابتهاجي.»

«ولكنني كنت قد نبهتك إلى أنني لا أحب النساء اللاتي يغمى عليهن من شدة الارهاق.»

«سأكون على ما يرام.»

«ولكنني لا أحب ان اغامر بشيء كهذا.»

وعندما اقتربوا من الفندق، قالت جيونا: «افرض أن أحداً قد راني؟ فنحن غير بعيدين كثيراً عن منزل ستامفورد، وقد يقوم عمي جارفيس بالاستعلام عني.»

أجاب الدوق: «لقد سبق وفكرت في ذلك، فهذا الفندق قديم الطراز وبعيد عن الطرق العامة بحيث لا يتوقع عمك أن اتناول طعام الغداء هنا.»

ولما رأى جيونا غير مقتنعة، قال: «ستجدين في جانب مقعدك الكاب المسائي خاصتي مطوياً هناك وهو سيغطي ثوبك بأجمعه. وأنا أقترح، حيث أنك تبدين صغيرة السن ونحيلة جداً خصوصاً إذا أسدلت شعرك على كتفيك، أقترح أن أنكر بشكل عفوي، بأنك شقيقتي الصغرى والتي تركت المدرسة لتوّها.»

ضحكت جيونا بسرور خالص: «إنك... رائع. إنك تجعل من كل شيء سلوى ومتعة، تماماً كما يحدث في الروايات.»

قالت هذا وهي تنزع الدبابيس من شعرها الذي كانت قد ربطته الى الخلف.

وعندما دخلوا إلى فناء الفندق، رأى الدوق صاحبه وقد بدا على وجهه السرور لاستقبال نزلاء يملكون مثل هذه الجياد الفاخرة.

وقفز بن إلى الأرض قائلاً حسب تعليمات سيده كما يبدو: «هذا هو السيد الكسندر ألبيون وهو يريد غرفة خاصة يتناول فيها طعام الغداء مع شقيقته الآنسة جولييت ألبيون.»

حكّ صاحب الفندق رأسه وقال: «يشرفني استقبال السيد في الفندق، ليس لديّ غرفة خاصة، ولكن لا يوجد أحد في غرفة الطعام.»

فقال بن: «دعها خالية إذن.» ثم أسرع ليساعد جيونا في النزول من العربة.

وأثناء غسلها يديها وتسريح شعرها، كانت تقول لزوجة صاحب الفندق بأنها فقدت قبعتها عندما كانت في العربة، إذ طارت في الهواء بسبب السرعة حيث أنها وشقيقها كانا مسافران في الطرق الريفية بعربة مكشوفة.

سألتها المرأة بقلق: «أليس لديك ما تغطين به رأسك، يا آنسة؟»

أجابت: «لم يوافق شقيقي بأن يقف للبحث عن قبعتي. ولكنه وافق على مدّ غطاء العربة وهذا أحسن الآن.»

قالت المرأة: «أظن لديّ شريط من القماش، فإذا كانت تناسبك...»

أجابت جيونا: «سيكون هذا لطف بالغ منك.»

وهكذا، عندما نزلت إلى الطابق الأسفل، كان شعرها مسرحاً وقد عقدته بشريطة إلى أعلى رأسها.

عندما أخبرت الدوق كيف حصلت عليها، ابتسم برضى وعندما أصبحا بمفردهما قال لها: «ها انك الآن قد اصبحت أشبه بالتلميذة.»

www.rewayti.net

فقالت: «سيصبح عمري تسعة عشرة سنة بعد ثلاثة أشهر.»

وقبل أن تقول هذا، كانت قد هتفت مسرورة عندما جلسا في غرفة الطعام الصغيرة لتناول طعام الغداء فكان أول ما أحضر إليهما شطائر الجبنة: «كيف يكون لديهم شطائر كهذه في مكان كهذا؟»

ثم أضافت بسرعة: «ولكنك طبعاً أحضرتها معك.»

أجاب الدوق: «إن خادمي حريص جداً على توفير وسائل الراحة لي، فالطعام في الفنادق الريفية لا يعجبه.»

فقالت باسمة: «إنني مسرورة لأنني جائعة جداً.»

لكن رغم أن الدجاج البارد المحشوّ بالفطر والزبيب كان لذيذاً دون شك، إلا أنها لم تستطع أن تأكل سوى القليل منه. ولكن الدوق كان يعلم أنها، بعد الحرمان الطويل الذي عانته، يلزمها بعض الوقت كي تعود إليها شهيتها الطبيعية.

وعندما انتهى طعام الغداء، تنهدت وهي تقول: «طالما أرقت الليالي أفكر في طعام كهذا، ولكنني كنت أظن أنني لن اتذوقه مرة أخرى.»

فقال: «إنني أتطلع إلى اليوم الذي أرى فيه حكمك على المستقبل أفضل مما هو الآن.»

وكما كان يتوقع، سألته: «إلى أين... ستأخذني؟»

«إلى من سيعتني بك، إلى أن أقوم بالاستعلامات التي تريدينها.»

فبدا التوجس على ملامح وجه جيونا: «ألن... ألن أكون... معك؟»

«ليس حالياً، وأظنك من الذكاء بحيث تدركين بأنه حيث انك تحت سن الرشد، وعمك هو الوصي عليك حسب القانون، فقد توجّه إليّ تهمة خطف فتاة قاصر.»

صرخت جيونا بذعر وقالت: «لقد نسيت، فاصفح عني... لقد نسيت أن هناك قانوناً في انكلترا ساري المفعول لمثل هذا الأمر... ما كان ينبغي عليّ أن... آتي معك.»

سألها: «وهل كان بإمكانك أن ترفضي المساعدة التي قدمتها اليك؟»

«لكن... وعلى ما أظن، أن عقوبة الخطف هي... النفي من البلاد.»

«انك لم تجيبي على سؤالي بعد.»

فقالت: «إذا أنا قلت إنني كنت سأرفض... فلن يكون هذا صحيحاً، ولكن... الآن، بعد أن تحررت عليّ أن... أتركك.»

فسألها: «وكيف سيمكنك... ذلك؟»

أجابت: «إذا أنت أعطيتني القليل من النقود... القليل جداً... فبإمكاني أن أذهب إلى القرية التي كانت أمي تقيم فيها قبل أن تهرب مع والدي، ولكن جدي لا بد وأن يكون متوفياً الآن... إنما هنالك أناساً يتذكرونه... وقد يساعدونني... على ايجاد عمل أعيش منه.»

وإذ كان الدوق ينظر إليها بإمعان، أدرك أنها لا تقول ذلك استدراراً للعطف وإنما هي جادة تماماً في عرضها هذا.

فقال: «إن لديّ خطة لأجلك مختلفة تماماً ولأنني أظنك تشعرين بأنك تدينين لي ببعض الشكر...»

www.rewayti.net

فقاطعته قائلة: «بل بالكثير منه.»

«فعليك أن تفعلي ما أريده.»

قالت: «إنك تعرف أنني سأفعل أي شيء... أي شيء تطلب مني.»

فقال بصوت عملي: «حسناً جداً، أول شيء هو اختيار اسم جديد لك، لأنك بطبيعة الحال، لا يمكن أن تبقي على اسم ستامفورد.»

«كلا... كلا بالطبع.»

«كنت سأسألك، على كل حال، عن اسم أمك قبل زواجها.»

«كان اسمها هاميلتون.»

أخذ الدوق يكرّر وكأنه يريد أن يثبته في ذاكرته، ثم قال: «حيث أن اسمك يوناني، وحيث ان شكلك لا يبدو انكليزياً تماماً، لذا اتوقع أن يكون الاسم يونانياً.»

ابتسمت جيونا، قائلة: «لقد كانت جدتي نصف يونانية وكان اسمها اندرياس.»

فقال: «إذن، فهذا هو الاسم الذي سأطلقه عليك الآن جيونا أندرياس وأظنه سيسرك.»

«إنني فخورة جداً بدمي اليوناني.»

«إن أنفك المستقيم رأيت مثله في لوحات أبطال اليونان القدماء.»

«إنك تبعث في نفسي الغرور بحيث صرت أشعر ان بإمكاني رفع رأسي عالياً حيثما أكون، في المستقبل.»

فقال الدوق: «أظن هذا ما فعلته أثناء الصعوبات التي مرت عليك في حياتك، والآن، لدي سؤال واحد فقط قبل أن نتابع طريقنا، هل لديك فكرة عن السنة التي تزوج فيها والداك؟»

أجابت: «لقد كانت أمي تقول إنني ولدت بعد فرارها مع والدي باثني عشر شهراً بالضبط. وهكذا أنا واثقة من أنهما تزوجا في شهر اغسطس سنة ١٧٩٩.»

«هذا يسهل علينا التحقق من أمر الزواج الآن.»

«إذن... فأنت ستبحث حقاً... عن تسجيل له؟»

كانت تتكلم بلهفة، فأجاب: «أظن سؤالك هذا يمثل إهانة لي.»

«أعرف أنك وعدتني بذلك... ولكنني لا أكاد أصدق أنك... وأنت هذا الإنسان البالغ الأهمية والذي لا بد لديك الكثير مما يشغلك... بأنك حقاً ستهتم بمشاكلي.»

«أظنني كنت قد أقنعتك بأنني مهتم بذلك.»

«لقد أقنعتني الآن، وأنا أريد أن أشكرك ولكن معلوماتي اللغوية لا تسعفني... لهذا كل ما يمكنني قوله هو نابع من قلبي... وأرجو أن تفهمني.»

«سأحاول ذلك حتماً.»

وإذ كان في صوت جيونا ما جعله يتأثر، تعمد أن يجيبها بشكل عفوي، وعندما انتهت من كلامها وقف يحدق بها. كان قد اعتاد ان تعجب النساء به وتحبه، ومع أنه كان واثقاً من أن جيونا لم تكن تعرف ما تعنيه هذه الكلمة من المعنى الذي يعرفه هو، فإن النظرة التي خالها إعجاباً به كانت ما تزال موجودة في عينيها.

وشعر بالضيق وهو يرى أن الأمر سيزداد تعقيداً إذا هي اعتبرته شيئاً آخر غير أنه مجرد منقذ لها وسيف للعدالة. لقد كانت هذه هي نيته في أن يكون بالنسبة إليها، المنتقم من عمها الذي عاملها تلك المعاملة المقيتة، والذي

www.rewayti.net

يجب أن يعاقب، كما يعاقب دائماً من يعذب الانسان والحيوان.

فهو يتألم كثيراً كلما تذكر كيف ضربت جيونا بالسوط. كذلك كان واثقاً من أنه كان صحيحاً ما قالته عن أن السيد جارفيس كان يريد قتلها بالموت البطيء وذلك بحرمانها من الغذاء الكافي نوعاً وكمية، وأيضاً عدا عن التعذيب الجسدي، بالتعذيب العقلي.

إن مجرد تصنيفها بأنها ابنة غير شرعية والافتراء على شرف أمها، جدير بأن يقضّ مضجع أيّ فتاة حساسة مثل جيونا، والتي وجدت نفسها، فجأة يتيمة محرومة من كل ما ألفته في حياتها.

ثم، مع قسوته ووحشيته تلك، هناك خيانة ابنته، وكلما ازداد تفكيراً فيهما، وفي سلوكهما ذاك، زاد تصميمه على أن يدفعا ثمن آثامهما.

كان يعلم أن أمامه مسيرة طويلة قبل أن تنجح خطته ويظفر بالسيد جارفيس حيث يريده أن يكون... ذليلاً مجروح الكبرياء.

لقد كان الدوق قد تعلم، أثناء تدربه على الملاكمة، ألا يستخف بخصمه، كما أنه تعلم أثناء الحرب، أن يتوقع ما هو خارج عن توقعاته.

وأثناء قيادته العربة، أخذ يقلب في ذهنه، مرة بعد مرة، تفاصيل خطته، لكي يتأكد من أنه لم يهمل أو يترك شيئاً للظروف.

كان الأمر وكأنه يخطط لمعركة ما، فهو ينظر إلى النقاط الضعيفة التي يمكن أن يستغلها الدوق:

وعندما اصبح العصر، أخذت المعالم الريفية تتغير قليلاً أخذت جيونا عندها تنظر حولها مسرورة، فأدرك الدوق أنهم اقتربوا من باكينغهام شاير حيث تقوم أملاك أسرته الفرستود.

إنه يعرف، الآن، كل درب وطريق رئيسي، وكأنما أدرك الجوادان أنهما لم يعودا بعيدين عن مكانهما حيث الراحة في الاصطبل، زادت سرعتهما دون حاجة لتشجيع من قائدهما.

وبعد ذلك بعشرين دقيقة، قال الدوق بسرور: «مرحباً بك، يا جيونا. إننا الآن فوق أرض هي ملك لأسرتي منذ أربعمائة عام.»

فهتفت: «كم هذا مثير، ولكنني ظننت أنك لن تأخذني إلى... منزلك.»

أجاب: «إنني سآخذك لتقيمي مع جدتي. وهي سيدة عجوز غاية في الشجاعة، وكانت في احدى الأيام من أجمل النساء، ولكنها الآن، نظراً لسنها وللروماتيزم الذي تعاني منه، غالباً ما يتملكها السأم، إنني أشعر بأنك ستمنحينها اهتمامات جديدة.»

«هل ستخبرها... بكامل القصة... عني؟»

أجاب: «سأخبرها لأن ذلك سيسرّها، ولكن يجب ألا يعلم بذلك أحد آخر ما عدا لوسيان والذي هو تحت وصايتي، يجب أن تفهمي جيداً يا جيونا أن عليك عدم الوثوق بأحد، وأعني، ألا تثقي بأحد.»

قالت: «أعدك بألا أتحدث بذلك إلى أي كان، ولكن اذا كنت مع جدتك، فهل... سأراك احياناً؟»

www.rewayti.net

أجاب باختصار: «انني لست مستعداً للاختفاء بعد.»

وعادا يتابعان الطريق بصمت.

عندما دخلا من البوابات المزخرفة، رأت جيونا أمامهم منزلاً غير كبير ولكنه رائع الجمال كان قد بني في عهد الملكة آن، ورآها الدوق تشبك يديها معاً وكأنها تشعر بالتوتر.

وعندما نظر إلى عينيها، فكّر في أنه لم ير من قبل عيني امرأة تماثلان عينيها صفاء وتعبيراً عما بداخلها من مشاعر، وذلك بوضوح غريب وكأنه ينظر في جدول صافٍ.

لم يكن ثمة مجال لقول أيّ شيء، إذ أوقف العربة فقفز بن منها إلى الأرض لكي يركض فيمسك برأسي الجوادين.

عند ذلك ركض نحوهم سائسان من الاصطبل وهما يلمسان جبهتيهما احتراماً بعد أن رأيا من في العربة.

كان الخدم أكثر بطئاً في فتح الباب الأمامي، وكان الدوق هو الذي ساعد جيونا على النزول من العربة، وإذ كان يمسك بيدها أثناء ذلك، لاحظ انها كانت ترتجف.

فقال لها بهدوء وهما يصعدان الدرجات نحو الباب: «ليس ثمة ما يخيفك.»

أسرع إلى الردهة رئيس الخدم بشعره الأبيض وهو يهتف: «يا لها من مفاجأة، يا سيدي الدوق، ان السيدة ستسرّ كثيراً، وأمس فقط كانت تشكو من انك قد أهملتها.»

أجاب الدوق: «إنني هنا الآن يا سمبسون كما ترى، أين هي؟»

«في غرفة جلوسها الخاصة يا سيدي، فهي لم تنزل

من غرفتها في اليومين الماضيين، نظراً لشعورها بالألم.»

فقال الدوق: «سأصعد إليها إذن. وأريدك يا سمبسون أن تأخذ الآنسة أندرياس إلى السيدة ميدوز مدبرة المنزل، وذلك لتسوّي من شأنها بعد هذه الرحلة الطويلة.»

«سأفعل ذلك، يا سيدي الدوق.»

وابتسم لجيونا وهو يقول لها: «إذا شئت أن تأتي معي، يا آنسة ولكن من الأفضل أن نصعد خلف السيد لأنني لا أستطيع السير بسرعة كما ترين.»

صعد الدوق أمامهما، وعندما وصل إلى اعلى درجات السلم، لاحظ أن جيونا كانت تتحدث بسرور إلى رئيس الخدم الذي كان يصعد السلم ببطء.

نقر الدوق على باب غرفة جلوس جدته، ثم فتح الباب ودخل.

وكما كان يتوقع، كانت جالسة على كرسي مريح بجانب النافذة وقد مدّت ساقيها أمامها على كرسي صغير وغطتهما بقطعة من الفرو الثقيس.

وإلى جانبها، كان كلب صغير طويل الشعر متدلي الأذنين زمجر حين فتح الدوق الباب، ثم نبح مبتهجاً وهو يقفز نحوه.

انحنى الدوق يربت على رأسه قبل أن يسير نحو جدته. لاحظ أنها، رغم خطوط الألم المرتسمة على وجهها كانت تبدو رائعة الجمال، وكان شعرها الأبيض في غاية من التنظيم وكأنها ذاهبة لحضور اجتماع ما.

كما كانت تضع حول عنقها عقداً من اللؤلؤ بعدة صفوف،

www.rewayti.net

وخواتم في أصابعها، وسواراً أخذ يتألق في أشعة الشمس وهي تمدّ إليه يدها قائلة: «أهذا أنت حقاً، يا فاليريان؟ كم تسرني رؤيتك.»

أجاب: «هذا أنا حقاً، يا جدتي. واعذريني لاهمالي غير المقصود هذا، فالأمير كثير الطلبات.»

قالت: «إنه دوماً هكذا، حتى عندما كان شاباً ولكنك لم ترسل إليّ خبراً بأنك قادم.»

«أنا نفسي لم أكن أعرف ذلك قبل يومين فقط يا جدتي. والآن أنا بحاجة إلى مساعدتك.»

تركت الدوقة يده وقالت: «إذا كان الأمر يتعلق بأيتام مزعجين تريدني مرة أخرى أن أوظفهم، فالجواب هو كلا فآخر واحد منهم أقنعتني بتوظيفه في المنزل، ضايق سمبسون بوقاحته، وذلك الذي كان قبله حطّم نصف دزينة من أجمل فناجين الشاي عندي، وأنفسها.»

وكان الدوق قد سمع كل هذا من قبل، وكان على وشك الإجابة عندما تابعت جدته تقول: «لديك ميتمان، أو ثلاثة تتولى الانفاق عليها، وإلى هناك يجب أن يذهب الأيتام وليس إليّ.»

كان الدوق يعلم أن لا فائدة من الشرح لجدته أنه بعد سن معينّ ينبغي أن يغادر الأيتام الميتم لكي يعملوا، تاركين أماكنهم لأيتام آخرين.

ولكنه قال وهو يجرّ مقعداً إلى جانب جدته: «برفقتي يا جدتي يتيمة تختلف تماماً عن أولئك الذين ساعدتهم.»

فقالت بحزم: «إنني لن أقبلها فلا تضيّع وقتك بمحاولة اقناعي، يا فاليريان، لأن جوابي هو كلا.»

قال الدوق: «هذا شيء مؤسف، ولكنني واثق من أنها ستثير اهتمامك، وأنا بحاجة إلى عونك ليس فقط في العناية بها، ولكن لمعاقبة وتقديم رجل إلى العدالة هو من الاجرام بحيث يذهلك.»

أجابت: «لا أصدق ذلك.»

ساد الصمت بينهما، ثم وكأن الفضول قد تملكها، سألته: «ومن هو هذا الرجل؟»

«إنه السيد جارفيس ستامفورد.»

حدقت الدوقة في حفيدها غير مصدقة، ثم قالت: «لا أظنك تعني والد الفتاة التي يلاحقها لوسيان والتي يتوقع الجميع منه أن يتزوجها.»

ضحك الدوق وقال: «انك تذهلينني حقاً يا جدتي! فليس هناك شائعة، أو أقاويل أو فضيحة لا تعرفينها، رغم وجودك في الريف وذلك قبل وقت طويل من وصولها إليّ.»

أجابت بحدة: «لا شيء آخر يسليني الآن بعد أن أصبحت بالكاد أفارق غرفتي.»

فقال: «إنني لا أتذمّر. فهذا يجعل قصتي أسهل. نعم، إن السيد جارفيس ستامفورد هو والد الفتاة التي كان لوسيان يهتم بها.»

كان قد تعمد التشديد على الجملة الأخيرة، ما جعل جدته تستقيم في جلستها وهي تسأله: «أتعني أنه تركها؟ أم أنها رفضته؟ مما سمعته، هو أنها على استعداد للامساك بأي رجل هو أكثر أهمية من لوسيان إذا اتيح لها ذلك.»

فقال الدوق: «ما أريد أن أخبرك به يا جدتي هي القصة

www.rewayti.net

بأكملها ومنذ البداية، وعندما تسمعينها ستدركين السبب في أن لا أحد ينبغي معرفة الحقيقة ما عداك أنت.»

وكان الدوق يتكلم بلهجة أدركت منها الجدة أن ما هو على وشك كشفه لها، هو في الواقع أمر بالغ الخطورة.

ثم، وقبل أن يتمكن من الجواب، فتح الباب ودخل خادم يحمل صينية عليها اكواب وابريق من المرطبات.

وضع الصينية على منضدة صغيرة، وعندما همّ بسكب العصير في الاكواب، وقف الدوق قائلاً: «سأقوم أنا بذلك، يا هنري.»

«شكراً يا سيدي الدوق.»

عندما أوشك الخادم على مغادرة الغرفة، رأى الدوق على الصينية طبقاً واحداً من الشطائر، فقال: «أخبر سمبسون ليرى ما إذا كانت الآنسة أندرياس والتي هي الآن مع مدبرة المنزل، سيصلها الشاي. إنني واثق من أن الطاهية تصنع لها الآن فطيرة.»

«سأخبرها يا سيدي بأن تصنع لها ذلك.»

وعندما أغلق الخادم الباب خلفه، قالت الجدة: «أخبرني الآن عن السيد جارفيس ولوسيان طبعاً، إنني لن أقبل هذه اليتيمة عندي أو تقديم القطائر الساخنة لها قبل أن أعلم سبب هذا كله.»

ابتسم الدوق وناولها كوباً من العصير، ثم تناول شطيرة أخذ يأكلها، قبل أن يبتدىء بالكلام.

ثم روى لها كل ما حدث بالضبط وذلك منذ توجه لزيارة السيد جارفيس ستامفورد في منزله أبراج ستامفورد الريفي.

لم تقاطعه الدوقة، وإنما كانت من الاستمتاع بما كانت تسمع، لدرجة نسيت معها شرب العصير الذي أمامها.

أخذت تستمع وعيناها على وجه حفيدها وهو يحدثها عن الضرب الذي كانت تتعرض له جيونا، ثم اللحظة التي وقف فيها مع لوسيان عند الاصطبل ينظران من خلف الشجيرات إلى كلاريبيل وصديقها.

وعندما انتهى، هتفت الدوقة تقول: «إنني أعرفك صادقاً على الدوام، معي على الأقل يا فاليريان، وأنا واثقة من أنك لم تخترع هذه القصة.»

قال الدوق: «نعم، إنها تبدو خيالية، ولكنني أؤكد لك أنها حقيقية تماماً وخصوصاً بالنسبة إلى جيونا.»

«أي نوع من الفتيات هي؟»

«إنها ذكية، رائعة الجمال ويجري في عروقها دم يوناني.»

رفعت الدوقة حاجبيها وهي تقول: «أظن أن ذلك الوغد السيد جارفيس قال لها بأنها غير شرعية وذلك كيلا تتباهى بأنها ابنة شقيقه.»

فقال: «هذا هو رأيي، وكل هذا لهو جزء من خطته التي يخفي وراءها سراً أثيماً.»

«وما هو ذلك السر؟»

أجاب: «هذا ما أنوي معرفته. يبدو أنه كان لأجل هذا السر يدفع المال لشقيقه ليبقيه خارج البلاد، وهو ما أراد أن يخفي أثره بعد أن مات، ولهذا كان خائفاً من أن تكشف جيونا، بشكل ما، ما كان يخفيه منذ زمن طويل.»

سكت برهة قبل أن يتابع قائلاً ببطء: «لا بد أن هذا هو

www.rewayti.net

السبب في عدم سماحه لها بمقابلة أي انسان، وانما كان يقصد التخلص منها دون أن يقترف جريمة قتل.»

فهتفت الجدة قائلة: «لم أكن أتصور أن مثل هذه الأمور تحدث في غير الكتب.»

أجاب: «حسناً، إنها تحدث فعلاً، ولكنك تدركين الآن، يا جدتي السبب الذي يجعلني أضع جيونا عندك. أريدك أن تعيديها شابة جميلة كما كانت. حتى إذا حان الوقت سيكون من المستحيل على السيد جارفيس، بعد أن لم يستطع قتلها، أن ينكر وجودها.»

«ومتى سيحين ذلك الوقت؟»

أجاب الدوق بلهجة تنذر بالشر: «عندما أصبح جاهزاً لذلك.»

* * *

جلست جيونا في غرفة نوم جميلة تنتظر متوجسة، وذلك بعد ان اغتسلت واصلحت من شأنها قدر الامكان.

كان الخادمان قد أحضرا إليها وجبة شاي دسمة. ومع سرورها بالفطيرة الساخنة، والشطائر الحسنة الصنع، والكعك اللذيذ، لم تستطع أن تأكل سوى بضع لقيمات.

كانت شديدة الخوف مما قد يحصل لها، إذا ما تركها الدوق هنا كما ينوي.

ووجدت نفسها تتساءل مذعورة عما إذا لم يكن من الأفضل لها أن تخرج وحدها وتختبىء في مكان ما حيث لا يمكن للسيد جارفيس أن يعثر عليها، ثم كي لا تشكل في نفس الوقت خطراً أو عبئاً ثقيلاً على الدوق

ولكنها لا تملك قرشاً واحداً، كما أن ليس لديها ما تبيعه.

فقد كانت من الذهول، بحيث لم تحتجّ عندما أخذ عمها ثيابها منها وذلك بعد أن أحضرها من ايطاليا إلى منزله الريفي، ليعطوها بدلاً منها ثياباً رمادية قبيحة من القطن مصنوعة في البيت. كانت قد سألته في ذلك الحين، وكانت ما تزال تملك شيئاً من الشجاعة، رغم علمها بكراهية عمها لذلك، كانت قد سألته: «لماذا يجب عليّ أن ألبس مثل هذه الثياب؟»

أجابها بحدة: «انك ستلبسين ما أريده، وحيث انك ابنة غير شرعية فرضك والدك على العالم، فأنت محظوظة لأنني لم أرسلك إلى ملجأ للفقراء أو للخدمة في ملجأ أيتام للعناية بأمثالك.»

أجابت بحرارة: «لا أريدك أن تقول مثل هذه الأكاذيب عن والدي ووالدتي، لقد كانا متزوجين... إنني أعرف أنهما كانا متزوجين. هل تظن أن أمي يمكن أن تقترف إثماً كهذا وهي ابنة رجل دين؟»

فلم يجب السيد جارفيس وإنما أخذ يضربها. ولم تدرك هي أن لا فائدة من محاولاتها الدفاع عن والديها الميتين، إلا بعد أن أوجعها ضرباً وتركها في حالة يرثى لها من الألم والاذلال.

لقد أخذت تفكر الآن بأنه عندما يذهب الدوق قد تستخف جدته بها، ما تعود معه مرة أخرى إلى أشبه ما يكون بخادمة بين مستخدمي هذا المنزل.

فتح الباب، فظنت أنها مدبرة المنزل قد عادت إليها بعد

www.rewayti.net

أن كانت تركتها لتستمتع بتناول الشاي وحدها، ولكن القادم كان هو الدوق نفسه.

قفزت واقفة وهي تهتف: «كنت خائفة من أن تكون... قد نسيتني.»

فقال: «آسف لتأخري عليك، ولكن جدتي اهتمت جداً بالموضوع وأريدك الآن أن تأتي معي لتتعرف عليك.»

فقالت بصوت خافت متردد: «كنت... كنت أفكر في أنه ربما...»

ولأن الدوق عرف من التعبير الذي بدا في عينيها ما كانت تفكر فيه، قاطعها قائلاً: «لقد كنت قد طلبت منك أن تثقي بي، وقد وعدتني بذلك، وأن تفعلي كل ما أطلبه منك. وأنا أطالبك بهذا الوعد، يا جيونا.»

فرفعت رأسها بكبرياء أعجب هو به.

كانت قد خلعت الكاب المسائي الجميل الذي كان قد أعطاها إياه لترتديه، فبدت له جميلة جداً بشعرها المنسدل على كتفيها وذلك رغم ثوبها الرمادي القبيح.

ولكنه كان يعلم أن جدته لن يفوتها رؤية وجنتيها الناتئتين من النحول، والهالتين القاتمتين حول عينيها.

قال لها بابتسامة لا تقاوم: «هيا بنا. عندما تتعرفين إلى جدتي ستدركين أنها غير مخيفة كما تبدو لأول وهلة.»

تمنت جيونا لو تستطيع تصديقه، وفكر هو وهما يسيران في الممر، بأنها لا شك تفكر في أنه ليس ثمة شيء يمكن أن يكون أسوأ مما كانت تعاني منه في منزل عمها.

فتح الدوق الباب، ولأول وهلة لم تر جيونا سوى أشعة الشمس، ويعبق من خلالها عبير الزهور.

ولكنها سرعان ما رأت سيدة مسنة بيضاء الشعر.

ومدّت الدوقة يدها إليها، وهي تقول: «لقد أخبرني حفيدي عنك، يا جيونا، وأرجو أن يسترك البقاء معي هنا.»

فانحنت جيونا تحييها.

وما أن لمست أصابع الدوقة وهي تصافحها، حتى تملكها شعور بالأمان والثقة. فأجابت بصوت منخفض متردد: «أخشى أن أكون... مصدر إزعاج لك... يا سيدتي.»

فقالت الدوقة: «بل أظنك في الواقع، ستكونين مصدر بهجة لي، فقد تملكني ليس الفضول فقط، بل العطف الشديد عليك لما سمعته عنك، كما أن حفيدي أعطاني التعليمات المشددة عما علينا أن نفعله في الأسابيع المقبلة.»

نظرت جيونا إلى الدوق متسائلة، فقال لها: «قبل كل شيء، عليك وعلى جدتي أن تختارا الثياب التي كان عليك أن ترتديها لو كان والدك حياً.»

كان واثقاً، وهو يقول ذلك، من أن ليس ثمة امرأة شابة كانت أم عجوزاً، يمكنها أن تمتنع عن قبول خزانة مليئة بالملابس الحديثة الطراز، فانتظر رؤية الابتهاج في عيني جيونا، ولم يخب أمله.

«ملابس... جديدة؟»

فقالت الدوقة بحزم: «العشرات منها، وما دام حفيدي هو الذي سيدفع، فلن نوفر قرشاً واحداً.»

خبا لمعان عيني جيونا للحظة وهي تقول: «ولكن... يا سيدتي... لا أظن انه بإمكاني...»

فقاطعها الدوق قائلاً بهدوء: «ستعيدين إليّ نقودي عندما

www.rewayti.net

أثبت كما أنا عازم على فعله، في أن كل الأموال التي تركها والدك هي ملكك وأتأكد من إعادتها إليك.»

بقيت جيونا لحظة لا تستطيع الكلام. أدركت أن الدوق لم يكن فقط يخبرها بأنها ستتلقى أموال والدها، ولكن أيضاً إثبات زواج والديها وأنها، وبالتالي ابنة شرعية، فصرخت بصوت مرتجف: «كيف لي أن... أشكرك؟»

وتدفقت من عينيها الدموع قبل أن تتمكن من منعها.

الفصل الخامس

وجد الدوق، وهو يجلس إلى مكتبه في غرفة المكتبة، بعد الافطار، كومة من الرسائل في انتظاره.

كان من بينها مستندات رسمية ودعوات، فتحها السكرتير السيد ميدليتول أما الرسائل الخاصة فقد كانت دوماً توضع على حدة في كومة منفصلة.

التقط رسالة حيث رأى أنها مكتوبة بخط جدته، ففتحها بشوق كالعادة.

لقد مضى أسبوعان حتى الآن دون أن يعلم ما يجري في منزل جدته، وقد أحجم متعمداً عن إرسال خبر مع احد الخدم أو الطلب من سكرتيره الاستعلام بالنيابة عنه.

كان قد حدث نفسه بأنه من المهم جداً التقليل من أيّ اتصال بينه وبين جيونا إلى أن يصبح جاهزاً لفضح عمها.

ومع أنه كان واثقاً من أن إمكانية الوثوق بخدمه، إلا أن هناك دوماً احتمال بأن تبدأ الأقاويل إثر كلمة فضولية أو ملاحظة تلقى بعدم اكتراث.

كان في الواقع بالغ القلق من أن يتكهن السيد جارفيس بمكان جيونا.

وكان يعلم أن السيد جارفيس قد أزعجه وأثار ارتباكه ما رأى من تصرف الفيسكونت.

فقد أخبر لوسيان الوصي عليه بتلقيه الدعوة إلى منزل

www.rewayti.net

ستامفورد في لندن، كما أنه كان قد تلقى عدة رسائل من كلاريبيل، تعبر له فيها عن مدى شوقها اليه كما يبدو، رغم أنه لم يقل ذلك وفكر الدوق مسروراً بأنه ولوسيان، على الأقل، قد سببا الحيرة، إن لم يكن التوجس، للسيد جارفيس وابنته السيئة السمعة، وذلك خوفاً مما يكون قد حدث.

ثم أخرج رسالة جدته المحررة على ورقة سميكة قد طبع في أعلاها شعار آل الفرستود، ثم قرأ ما كتبته بخطها المنمنم السهل القراءة.

حفيدي الغالي، أظن قد حان الوقت لكي تقوم بزيارتي، كما انه لديّ شيئاً أريدك أن تراه، وأنا واثقة من أنه سيبعث فيك الاهتمام والفضول.

هل يمكنني أن أقترح فكرة احضار لوسيان معك؟ فقد علمت أنه يتصرف الآن بالشكل المتوقع منه في ظروفه تلك، مما لا يناسب لا سمعته ولا صحته.

تعال في أسرع وقت تستطيعه، وسأرحب بك من كل قلبي.

جدتك المحبة

شارلوت الفرستود.

ابتسم الدوق وهو ينتهي من قراءة هذه الرسالة التي تنم عن طبيعة جدته التي لا تغفل عما يحدث في لندن إذ لم تكن أقل اهتماماً بلوسيان منه هو.

وكما قالت، كان من المتوقع، بعد الصدمة التي تلقاها من خداع كلاريبيل، أن يحاول شفاء قلبه المحطم بواسطة الخروج مع اصدقائه، وكان أصدقاء الدوق ذوو النوايا الطيبة يوالون إخباره يومياً تقريباً عن سلوك لوسيان.

ولم يكن في تصرفات لوسيان تلك ما هو مدعاة للذم بشكل خاص، ولكن ما لبث أن خطر في باله، فجأة أن هذا ليس السبب الحقيقي الذي جعل جدته تكتب إليه.

فقد طالما سمعها تقول، بحكمة أكسبها إياها الزمن أن الذي يشفي من الحب القديم هو الحب الجديد، وأدرك الآن أن ما كانت تقترحه ومنعها الحرص من كتابته على الورق، هو أنه بإمكان جيونا أن تمحو صورة كلاريبيل الجميلة من ذهن لوسيان.

وخطر للدوق أن هذا شيء كان عليه أن يفكر فيه هو نفسه.

كان لوسيان وجيونا متناسبين تماماً من حيث السن، وأيّ انتقام من كلاريبيل قد يكون أكبر من أن تتزوج ابنة عمها المحتقرة المهانة من الشاب الذي ركزت هي عليه طموحها كله؟

وبدت على شفتي الدوق ابتسامة رضى وهو يضع من يده رسالة جدته ثم يقرع الجرس الذهبي الذي على مكتبه.

وعلى الفور فتح الباب ودخل السيد ميدليتون فقال له الدوق: «أرسل سائساً إلى مسكن الفيسكونت، يا ميدليتون، يطلب مرافقتي إلى الريف عصر هذا اليوم وأننا سنتناول طعام الغداء هنا معاً أولاً. وأوصه بألا يتأخر.»

أجاب ميدليتون: «سأفعل ذلك، يا سيدي الدوق.»

قال الدوق آمراً: «أرسل السائس بأسرع ما يمكن، وبعد ذلك تنهي أمر هذه الرسائل.»

ولم تأخذ منهما الرسائل الوقت الذي توقعه، ما جعل لديه وقتاً يفكر فيه باقتراح جدته، كما فهمه، وهو أن يقع لوسيان في حب جيونا.

www.rewayti.net

وتصوّر أن هذا لن يكون بالأمر الصعب حيث أن لوسيان قد تعوّد أن يقع في حب كل فتاة ذات جمال أخّاذ.

وتذكر الدوق، بشكل غامض أنه في الماضي، كان يبدو أن لديه ميلاً نحو الشقراوات، ولكن ربما كان ذلك مصادفة.

وعلى كل حال، بصفته خبيراً بالجمال، كان واثقاً من أنه لم يخطىء في التفكير في أن جيونا بعد أن يزداد وزنها قليلاً، وتتألق في ملابسها، ستبدو ذات جمال رائع.

كان أكثر لباقة من أن يخبر لوسيان بأن وراء هذه الزيارة أي شيء عدا رؤية جدته والتحدث إلى جيونا.

سأله لوسيان بلهجة عدائية: «هل سمعت أي شيء ذات أهمية عن ذلك الغادر ستامفورد؟»

كان قد بدا عند وصوله، كعادته مثالاً للأناقة، ولكن نظرة واحدة إليه أنبأت الدوق بأنه لم ينم الليلة الماضية إلا قليلاً، دون شك لم يأكل سوى القليل من الأطعمة اللذيذة التي جهزها لهما الطاهي. ولكن الدوق لم ينطق بأي ملاحظة على ذلك.

وما أن أنهيا الطعام، حتى جاء السيد ميدليتون إلى غرفة الطعام مسرعاً.

كان الخدم قد قدموا القهوة وخرجوا، ومع هذا، حيث أنه كان من غير المعتاد ازعاجه أثناء الطعام، رفع الدوق عينيه بدهشة، إلى سكرتيره الذي قال له: «رأيت انك قد تحب المعرفة حالاً، يا سيدي الدوق بأن تحرياتنا في منطقة دوفر قد تكللت بالنجاح.»

«أتعني بذلك اكتشاف مكان زواج جايمس ستامفورد واليزابيت هاميلتون؟»

«تماماً، يا سيدي الدوق، وهذه هي المستندات.» وناول السيد ميدليتون عدة أوراق للدوق الذي أخذ يقرأها وهو يتصور مبلغ ابتهاج جيونا بها.

كان الحق معها، وعمها المقيت قد تعمّد، دون شك أن يسميها ابنة غير شرعية فقط لكي يشعرها بالتعاسة.

لقد تزوج والداها في قرية صغيرة في ضواحي دوفر وذلك بتاريخ ٩ آب ١٧٩٩ كما تقول المستندات الرسمية التي بين يديه.

هتف بسرور: «هذا حسن. شكراً يا ميدليتون إنها خطوة في المسار الصحيح دون شك.»

سأله لوسيان: «ما الذي اكتشفته أيضاً؟ لا بد أنك اكتشفت شيئاً ملموساً ضد ذلك الأثيم.»

أجابه السيد ميدليتون: «أريد أن أطلب منك يا سيدي، أن تصبر قليلاً. فلديّ ثلاثة من شهود الزواج هم موجودون في ليفربول حالياً.»

هتف الدوق: «ليفربول.»

«إن من يزوّدني بالمعلومات أخبرني بأن الفضيحة التي هتفت يا سيدي بأنك تتذكرها قد حدثت في ليفربول.»

سأله لوسيان: «ولماذا هناك؟»

«لأنها، يا سيدي كانت متعلقة بتجارة العبيد وبعدد كبير من سفن العبيد كانت تغادر وتعود إلى ليفربول.»

تململ الدوق في جلسته: «أتراك تخبرني، يا ميدليتون بأن ثروة السيد جارفيس الضخمة اكتسبها من تجارته بالعبيد؟»

www.rewayti.net

«نعم، يا سيدي الدوق، وبينما والده من قبله كوّن ثروة، فقد زادها السيد جارفيس مائة ضعف.»

قال الدوق متأملاً: «كان عليّ أن أتكهن ذلك.»

فقال ميدليتون باحترام: «لم تكن هذه التجارة تمثل جريمة في ذلك الزمن، الا إذا كانت صريحة وواضحة.»

وكان لوسيان يستمع باهتمام، ثم قال وكأنه يحدث نفسه: «وهكذا، ما قام به وما كان ابن عمي فاليريان يحاول أن يتنكره، كان أمراً اجرامياً.»

أجاب ميدليتون: «هذا ما علينا اثباته ولكنني أظن أن بإمكاني، خلال بضعة أيام، أن أضع أمام سيدي بياناً يثبت أن السيد جارفيس قد قام بعمله بطريقة مخزية وغير قانونية معاً.»

فدفع الدوق كرسيه بعيداً عن المائدة ثم قال: «أريد التفاصيل الآن، يا ميدليتون.»

أجاب الرجل متوسلاً: «كلا، أرجوك يا سيدي الدوق، لا أريد أن أنغص في نفسك الآمال، حتى تجد نفسك في آخر لحظة غير قادر على تقديم أي برهان.»

وبدا التوسل في عينيه ثم تابع يقول: «إننا نتعامل، كما تعرف يا سيدي جيداً، مع رجل هو غاية في المكر والدهاء وبإمكانه أن يفلت من أي فخ نضعه له بأي وسيلة كانت، سواء حسنة أم قذرة، إلا إذا كان ذلك الفخ مصنوعاً من الحديد.»

فقال الدوق: «لقد فهمت، فافعل ما بدا لك، يا ميدليتون. ولكن، بصراحة تامة أنا متشوق لإنهاء هذا الأمر إذ لا يمكن

أن أطيق رؤية السيد جارفيس في كل سباق للخيل وكذلك في الأندية المحترمة.»

فقال لوسيان بلهجة حادة: «أرجو بعد أن تنتهي منه، ألا يجرؤ بعد ذلك على مواجهة الناس في أي مكان محترم.»

كان كلامه موجهاً ضد السيد جارفيس، ولكن الدوق كان يعلم أنه يكره كلاريبيل بكل عنف رجل مخدوع.

وفي نفس الوقت، كان واثقاً من أن لوسيان ما زال جرحه لم يندمل بعد حب كان يراه مثالياً، فهو لن يشفى منه بسهولة.

وقف ثم قال: «هيا بنا، يا لوسيان دعنا نذهب إلى الريف. فهناك الهواء النقي على الأقل والشمس الساطعة.»

ولم يبد على الفيسكونت انه قد تحمس بشكل خاص لشيء كهذا، ولكنه تبع الدوق طائعاً، وبعد ذلك بعشرة دقائق كانا قد انطلقا في طريقهما.

كان الدوق يقود بنفسه جواديه الأصيلين وكان كالعادة، ممتلئاً سروراً، ما جعله ينسى للحظة قصيرة، الشاب التعس القابع بجانبه.

ثم ما لبث أن رأى أن جدته كانت في غاية الحكمة إذ أرسلت تطلبه.

استغرقت الرحلة إلى الفرستون أكثر من ساعتين بقليل، بالسرعة التي يسافر بها الدوق عادة وما لبث أن توجه نحو الطريق المؤدي إلى منزل جدته والذي بدا جميلاً جداً بقرميده الأحمر تحت أشعة شمس العصر، وامتلأ الدوق اعجاباً بالتناسق الكامل في ذلك البناء، ما جعله يفكر في جيونا وتناسق ملامحها، خصوصاً أنفها الصغير المستقيم.

www.rewayti.net

أوقف الجوادين أمام الباب الأمامي، وعندما نزل ولوسيان من العربة المكشوفة، برز سائس من الاصطبل، كما كان سمبسون واقفاً على قمة الدرجات للترحيب بهما.

قال سمبسون: «لم أكد أجرؤ على التفكير في أنك يا سيدي ستكون هنا قبل غد.»

أجاب الدوق: «أردت أن أجعلها مفاجأة للسيدة، أين هي؟»

لقد ظن الدوق أن رئيس الخدم سيقول كالعادة، إنها في الطابق الأعلى، ولكن هذا قال: «إنها في غرفة الجلوس، يا سيدي ومعها الآنسة جيونا.»

كان هذا كل ما كان يرغب الدوق في سماعه، فدخل إلى الردهة بخطى أسرع مما استطاع سمبسون أن يجاريها، وفتح باب غرفة الجلوس بنفسه.

وقف لحظة عند العتبة بشكل مسرحي منتظراً صرخة الترحيب المعتادة من جدته.

كانت تجلس عند النافذة المفتوحة وجيونا بجانبها، فهتفت: «آه، يا فاليريان، لشدّ ما أنا مسرورة برؤيتك.»

تقدم الدوق نحوها، وعند ذلك ركضت جيونا نحوه.

ألقى نظرة سريعة على تلك العينين اللتين كانتا تلتمعان وكأن أشعة الشمس بأجمعها قد استحالت فيهما، وعلى ذلك الشعر ذي اللون الغريب والمنظم بأحدث طراز، وكذلك على الثوب الأبيض المزيّن بالكشاكش والأزهار.

ثم قالت بصوت كتغريد الطيور: «ها قد... جئت... لشدّ ما اشتقت لرؤيتك... ولكنك هنا الآن.»

ابتسم لها الدوق وقال: «أهذه هي جيونا حقاً؟ أم أنني أرى شابة غريبة؟»

فضحكت جيونا، ثم وكأنما كان يلومها للطيش الذي بدا منها، انحنت له احتراماً.

«يشرفني جداً مقابلتك يا سيدي.» قالت ذلك بكل رصانة ولكن عينيها كانتا تتألقان.

فقال الدوق: «دعيني أنظر إليك.»

كان ثوبها في منتهى الأناقة، ولكن الدوق وجد من الصعب عليه أن يرفع عينيه عن وجهها.

رأى خطوط ذقنها وخديها قد تلاشت، بينما حدثه التألق في عينيها، واللمعان في شعرها بأن الغذاء الجيد والشعور بالأمان والسعادة، هذه الأمور قد صنعت ما كان يرجوه.

لم يتكلم، وبعد لحظة قالت جيونا بقلق: «هل أصبت... بخيبة أمل؟»

أجاب: «وهل هذا معقول؟ ما الذي فعلته لك جدتي؟»

أثناء حديثه معها، رأى لوسيان والذي كان قد دخل الغرفة في أثره، رآه يحيي جدته.

قالت: «يسرني رؤيتك، يا عزيزي والآن، أعرّفك إلى ضيفتي والتي كما أظن سمعت عنها دون أن تراها.»

أجاب لوسيان: «كلا، إنني لم أرها قط من قبل.»

وعندما انحنت له جيونا باحترام، بددت ابتسامتها الكثير من علامات الارهاق التي كانت تكسو وجهه.

وحيا الدوق جدته وهو يقول لها: «أظنك أنفقت الكثير من المال.»

www.rewayti.net

أجابت: «ظنك هذا صحيح. وأنا وجيونا ننوي انفاق أكثر من ذلك.»

وقبل أن يتمكن الدوق من الجواب، قالت جيونا بهدوء: «هذا إذا سمحت لي إمكانياتي المالية بذلك.»

أدرك أن وراء قولها هذا سؤالاً وجواباً فأمسك بذراعها وجذبها نحو باب الشرفة المؤدية إلى الحديقة، وهو يسأل جدته: «هل لي أن أتركك مع لوسيان بضعة دقائق يا جدتي؟ إن لديّ شيئاً هاماً أريد إطلاع جيونا عليه.»

أجابت الجدة: «ثمة الكثير مما أريد من لوسيان أن يخبرني به.» قالت ذلك وهي تبتسم للفيسكونت بطريقة ما زالت جذابة رغم سنها، ثم تقول له برقة: «إنني آسفة لكل ما عانيته من آلام أرغمت على تحملها وما كنت لتستحقها.»

تكهّن الدوق، وهو يبتعد مع جيونا انه عند عودته، سيكون لوسيان قد أفرغ كل ما يثقل نفسه من تعاسة، وبما أن ذلك سيكون عند امرأة بحنان وعطف جدته، فهذا سيفيده كثيراً.

ان معرفته بالطبيعة البشرية، تخبره بأن ما يراه لوسيان أسوأ من اضطراره إلى تأخير الانتقام من السيد جارفيس، هو عدم تمكنه من افضاء ما في نفسه إلى أصدقائه والذين لا بد وانهم يلاحقونه بالأسئلة عن سبب توقفه عن الاهتمام بكلاريبيل، كما كان سلوكه يحيّرهم إذ أصبح أكثر عنفاً وتعدياً من أي وقت مضى.

ومع هذا، لم يكن يستطيع أن يقدّم إليهم تفسيراً مقنعاً، ولم يكن ثمة ما يتمكن من قوله تبريراً لإفراطه في السهر وبارهاق صحته.

حدث الدوق نفسه بأن جدته ستتمكن من التخفيف عنه.

جذب جيونا من الشرفة إلى حديقة الورود حيث كان ثمة عريشة مغطاة بمختلف أنواع الزهور وتحتها مقعد تغطيه الوسائد.

جلس الدوق وهو يستدير لكي يتمكن من النظر إلى جيونا حيث رآها قد أصبحت، ليس فقط إحدى أجمل النساء اللاتي رآهن في حياته، بل أيضاً غير عادية إلى حدّ بالغ.

وكان يخشى من أنها عندما تتأنق في ملابسها، قد تفقد طابعها اليوناني الذي يحبه فيها، أو يخفف منه على الأقل.

ولكنه بدلاً من ذلك، رأى ان ذلك الطابع يشتد بروزاً بينما عيناها الرماديتين تنظران إليه بنفس الشغف الذي اعتاده فيهما.

سألته بشوق: «ماذا عندك... لتخبرني به؟»

أجاب: «لديّ ما أعطيك إياه.»

ثم ناولها الأوراق التي كان السيد ميدليتون قد أحضرها له قبل مغادرته لندن مباشرة.

وعندما أخذتها منه، خيّل إليه أن أصابعها ترتجف، وعندما قرأت ما فيها رأى رجفة السعادة تتملكها.

مضت لحظات أدرك فيها أنها لم تستطع أن تقول شيئاً. وأخيراً، وبصوت منخفض جداً، قالت بصوت لا يكاد يسمع: «كان ذلك صحيحاً... كنت أعلم... ذلك.»

«لقد ساعدنا كثيراً معرفتك بتاريخ عقد الزواج بالسنة والشهر، وكذلك قولك ان ذلك قد يكون حدث في ضواحي دوفر.»

www.rewayti.net

قرأت ما كتب في الأوراق مرة بعد مرة وكأنما تريد إقناع نفسها بأن ما طال شوقها إليه هو مدوّن فيها.

وما لبثت أن رفعت إليه عينيها الرماديتين فشعر وكأن النور الذي كان ينبعث منهما يكاد يعمي عينيه.

قالت له: «كيف تمكنت من... القيام بهذا... لأجلي... وكيف لي بأن... أوفيك حقك... من الشكر.»

«كنت أعلم أن هذا سيسعدك.»

«اسعدني اكثر مما يمكن وصفه. ورغم أنني كنت أعلم أن ذلك لم يكن صحيحاً، فإن مجرد سخرية عمي من أمي العزيزة واستخفافه بها جعلني أشعر وكأنني اتمرغ في الوحل.»

فقال باسماً: «وها إنك الآن تطيرين مرتفعة نحو قمة جبل الأولمبس.»

قالت بسرعة: «ليس بعيداً عنك... إنني... من دونك... أشعر بالخوف.»

أدرك ما كانت تفكر فيه، فقال بهدوء: «قليلاً من الصبر والوقت إلى أن تتملك عمك الشكوك وتنزع منه الثقة فلا يعود له من الارتباط بك ما يمكنه معه من تهديدك.»

«لا... لا أستطيع تصديق... ذلك.»

فقال: «ثقي بي إذن، كما أن عليك كما تعلمين البقاء هنا مع جدتي دون أن يعلم أحد بشخصيتك الحقيقية.»

«لقد كانت السيدة جدتك رائعة وبالغة اللطف نحوي... وأنا سعيدة جداً معها. ولكنني ما زلت خائفة... من أن أضعك في موقف خطير.»

«أما زلت تفكرين بي؟»

«طبعاً، وهل يمكنني التفكير... في أي شيء آخر... وأنا التي لو لم تنقذني لكنت الآن ميتة؟»

وارتجف صوتها عند آخر كلمة فأدرك أن خوفاً حقيقياً ما زال يتملكها.

فقال: «عليك أن تنسي الماضي كلياً كما على لوسيان أن ينسى ما حدث له. ولهذا من رأيي أن تصادقيه فهو بحاجة إلى مساعدة منك.»

قالت: «لقد أخبرتني جدتك أنه يتصرف بشكل همجي نوعاً ما، وأنا أفهم من هذا أنه يحاول بذلك إخفاء آلامه عن الآخرين.»

قال الدوق: «هذا صحيح، ولكن هذا يضرّ به، وأظن ان بإمكانك إذا وجدت فرصة لذلك، أن تمنحيه اهتماماً جديداً يشغله.»

لاحظ انها تنظر إليه متسائلة ولكنها لم تلق عليه أية أسئلة أخرى. وإنما قالت: «حدثني من فضلك... عما قمت به أخيراً... وما هي آخر أخبار... البرلمان.»

دهش الدوق لاهتمامها بمثل هذه الأمور، ولكنه حدثها عن القرارات التي أقرها مجلس اللوردات وعن المحاضرة التي سيلقيها هو عن واحدة منها.

وعندما انتهى من حديثه، سألته: «هل صحة الملك سيئة حقاً؟»

أجاب: «سيئة جداً ولا أظنه سيعيش طويلاً.»

فقالت: «إذن فسيصبح الأمير ملكاً، وأنا أفكر الآن بهذا أن عليّ أن أصبر مثله. لقد ابتدأت أفهم معنى ما كان يقوله لي جدي من أن ليس ثمة أصعب من اضطرار الانسان إلى الصبر، فهو يقتل الروح.»

www.rewayti.net

ضحك الدوق وسألها: «أهذا ما تشعرين به؟»

أجابت: «لا أعرف بالنسبة إلى روحي، ولكن عقلي فارغ الصبر إلى أقصى حد، وهذا يجعلني متوترة قلقة.»

فقال باسماً: «ومع ذلك تبدين الآن أجمل وأكثر رشاقة، وتختلفين تماماً عن ذلك الشبح الرمادي الصغير الذي كنت رأيته جالساً على جذع شجرة.»

أجابت: «إنني أراك دوماً في أحلامي مقبلاً نحوي... إنني أعلم الآن... حتى ولو لم أدرك ذلك في وقته... بأن الظروف اوجدتك في طريقي لإنقاذي.»

قال بمرح: «هذا كلام شاعري.»

فقالت: «نعم، وهذا هو السبب الذي دفعني إلى...» وسكتت.

نظر إليها مستطلعاً، ثم سألها: «أتراك كنت تكتبين شعراً عما حدث؟»

تصاعد الدم إلى وجنتيها خجلاً وهي تجيب: «لم أكن أريد أن أخبرك... ولكنها قصيدة موجهة إليك. لقد حاولت فقط... أن أعبّر فيها عما أشعر به... نحوك... بالشعر لأنه أسهل من أن اتفوه به.»

فقال الدوق: «هذا يشرفني، متى يمكنني رؤيتها؟»

«لن تراها أبداً.»

وإذ نظر إليها بدهشة، قالت: «لأنها غير وافية. ذلك لأن لا كلمات فيها، وهكذا مزقتها شاعرة بالخجل لعدم استطاعتي... التعبير بالكلمات... عما أشعر به.»

قال: «ربما هو ذنب اللغة. حاولي أن تكتبي باليونانية.»

فهتفت بدهشة: «يا لها من فكرة رائعة، هذا ما سأفعل، وعند ذلك لا أظنني سأشعر بالحرج إذ أريك إياها.»

قال الدوق: «سأنتظر رؤيتها.»

قال هذا وهو يتساءل عما إذا كانت هناك امرأة من معارفه، الآن أو في الماضي قد نظمت فيه قصيدة باللغة اليونانية.

لكنه ما لبث أن حدث نفسه بأن عليه أن يشجع جيونا، ليس على تركيز أفكارها عليه بل على لوسيان.

وعندما أخذا يسيران في الحديقة، قال: «والآن قولي بما أريده منك، حاولي أن تساعدي لوسيان، ربما سيتضح له في النهاية أنه كان من حسن حظه أن فقد حبه هذا... ولكنه حالياً يجد ذلك تجربة مؤلمة للغاية.»

* * *

كان من تمكن الجدة من تناول طعام العشاء معهم في غرفة الطعام، مفاجأة كبرى بالنسبة للدوق، وفيما بعد في ذلك المساء رأى جيونا تخرج إلى الشرفة ليلحق بها لوسيان بعد لحظة.

كانا متكئين على حاجز الشرفة الحجري وقد أخذا يتحدثان معاً بهدوء، ولم يستطع الدوق سماع ما كانا يقولانه، ولكن لم يكن ثمة من شك في أن لوسيان كان يتكلم برقة وبصوت كان يختلف تماماً عن ذلك الصوت الغاضب المتشدق الذي لم يكن الدوق يسمع منه سواه في الأسبوعين الماضيين.

www.rewayti.net

قالت الدوقة راضية: «ما أجملهما. إنهما متلائمان تماماً.»

أجاب الدوق: «إنهما حتماً حسنا المنظر جداً.»

تابعت الدوقة تقول: «إن لدى جيونا من الذكاء وقوة الشخصية ما يحتاجه فتى مثل لوسيان. إنها مخلوقة حلوة جداً، فقد شغف بها الخدم جميعاً.»

فقال الدوق: «من المؤكد أنها غير عادية.»

«لقد سعدت بها جداً هنا. فأنا الآن أشعر بتحسن في صحتي، لم أشعر بمثله منذ سنوات.»

«دوماً كنت أقول بأنك لا تعانين من شيء، يا جدتي، سوى السأم.»

فقالت: «حسناً، لا يمكن أن يسأم أحد وعنده جيونا. إنها فتاة طيبة حتى ولو لم تكن ذات قصة غير عادية تجعلها شبيهة ببطلات الروايات.»

أدرك الدوق أن ما سمعه من جدته، لهو ثناء بالغ وهي التي نادراً ما تحب النسوة الشابات، ورأى أن جيونا بصفاتها هذه، يكون من الغريب جداً ألا ينسى لوسيان حبه القديم ليغرق في حبها هي.

وعندما عاد لينظر إليهما وجد أنهما كانا قد تركا الشرفة، وذلك أثناء حديثه مع جدته، إلى حيث غابا عن الأنظار.

وحدث نفسه أن هذا هو بالضبط ما كان يرجوه وعنى ذلك، وبينما كان يرى الشمس تغيب في وهج الشفق الكامل البهاء، تذكر أن هذا هو المنظر نفسه الذي كان، عندما رأى جيونا لأول مرة، جالسة على جذع شجرة.

عندما تحدث إليها حينذاك، أدرك أنها مختلفة جداً عما تبدو عليه، وأنها جميلة جداً رغم ثوبها الرمادي القبيح الذي كانت ترتديه.

وألقى نظرة من النافذة، سرعان ما تبزغ النجوم ويتوارى آخر شعاع للشمس خلف الأشجار.

وفجأة تذكر عندما نظر إلى جيونا في ضوء القمر ورأى الشغف مطلاً من عينيها.

تساءل عما يقوله الواحد للآخر هي ولوسيان الآن، وعما إذا كانت تنظر إليه بنفس الطريقة. ولسبب ما، لم يستطع فهمه، شعر بضيق بالغ. وجعله هذا الشعور يقف في مكانه ثم يسير إلى المنضدة التي كان سمبسون قد وضع عليها بعض المرطبات والاكواب.

ودون أن يتكلم سكب لنفسه كوباً من العصير، ثم عاد إلى حيث وقف ينظر إلى الحديقة.

ثم أخذ يفكر في أن جيونا الآن تجلس مع لوسيان تحت عريشة الورود حيث الجوّ مفعم بشذا الأزهار.

لا بد أن هذه الجلسة في ضوء الشفق هي شاعرية تماماً. وتساءل عما ترى لوسيان يقوله لها الآن.

أتراه يخيفها بتهوره واندفاعه، أم أنه يعبّر لها عن إعجابه بحرارة أكثر مما يلزم؟

وتمتم بصوت خافت: «تبّا لكل ذلك.» وتملكه شعور لا عهد له به، ويختلف تماماً عن كل ما ساوره من مشاعر في حياته.

لم يستطع أن يجد له تفسيراً، كما أنه لم يشأ ذلك. كل ما أن يعرفه هو أنه من الخطأ بالنسبة إلى جيونا، أن تكون

www.rewayti.net

وحدها في الحديقة مع رجل قد تعرفت إليه لتوّها، بصرف النظر عن كون هذا شيئاً غير مناسب مطلقاً.

ووضع الدوق الكوب جانباً دون أن يتناول شيئاً منه وقال: «أرى يا جدتي، أن أخرج للتنزه قليلاً فالجوّ خانق هنا.»

«لماذا!.. طبعاً، يا حبيبي أوافقك على ذلك. فقد كان الجوّ حاراً جداً هذا النهار.»

ولكنه كان قد خرج إلى الشرفة دون أن يسمع أجوابها حيث هبط الدرجات التي تؤدي إلى الفناء، ومن ثم تضاءل صوت وقع خطواته فوق الأرض الحجرية.

كانت جدته تراقبه وقد بدت في عينيها الذكيتين حيرة خفيفة، لقد كانت ذات خبرة بالرجال، نظراً لسنوات حياتها الطويلة.

ثم، وكأن فكرة جديدة خطرت لها، ارتسمت على شفتيها ابتسامة خفيفة، ثم استندت إلى الخلف براحة، ومضت تنتظر ضيوفها.

***

أخذ الدوق يتمشى على غير هدى، أو هكذا ظن نفسه نحو عريشة الورود ولكنه، حين وصل إليها، وجدها خالية.

وتملكته الدهشة. وتساءل: «أين تراهما ذهبا؟»

وكان لوسيان وجيونا، في الواقع، قد اتجها من عريشة الورود سائرين إلى أن وصلا إلى متاهة التسلية حيث الممرات الصغيرة المتشابكة بنهاياتها المسدودة ما عدا واحدة منها.

فقال: «كنت أكره هذه المتاهة عندما كنت صبياً صغيراً لأنها كانت تخيفني. أما الآن فأظن أن كراهيتي لها لأنها أشبه بحياتي... ممرات كثيرة تنتهي فجأة بجدار مسدود، ما يجعلني أدرك أنني ضيّعت وقتي في محاولة اكتشافها.»

كان يتكلم بمرارة، فقالت: «لو أن كل انسان يحصل على ما يريده منذ أول محاولة، فكّر كم سيكون ذلك مملاً.»

«طبعاً، وهذا ما يجعل الإنسان يكفّ عن المحاولات.»

وعندما شعرت بأن الفيسكونت لم يفهم، قالت موضحة: «افترض أنك تعلم دوماً أيّ حصان سيكسب السباق، فما فائدة التفرج على ذلك؟ وإذا أنت أصبت كل طير تصوّب إليه بندقيتك، فهل ثمة ما يستحق ذهابك للصيد؟ نفس الأمر مع كل شيء في الحياة. أظن الفشل هو الذي يجعل الانسان يصرّ على النجاح.»

فقال: «أظنني أفهم ما تقصدين، ولكن الأمر يكون مختلفاً جداً عندما يصحو المرء من الوهم تجاه بعض الناس.»

«المسألة هي علينا ايلام أنفسنا وليس الآخرين.»

فنظر الفيسكونت إليها ذاهلاً: «هل هذا ما تعتقدينه؟»

«طبعاً، أعتقد أن عقلنا هي أغلى شيء نملكه، فإذا ما خُدعنا بصفات شخص ما، فهذا نتيجة غبائنا، ذلك لأنه علينا ألا نتوقع من الناس أن يعطوا أكثر من قدراتهم.» وسكتت.

فقال: «أكملي حديثك إنني أحاول أن أفهم ما تقولين.»

«إن فشلنا أشبه بالأزهار التي تذبل قبل الأوان فنلقي بها بعيداً. ولكن هناك الألوف غيرها تنتظر منا قطفها. فكر كم سيكون الأمر بهيجاً عندما يجد الانسان أمامه هذا المجال الواسع من الخيارات المختلفة.»

www.rewayti.net

حدق الفيسكونت فيها لحظة، ثم قال ضاحكاً: «إنك غير عادية، ولا تشبهين أيّة فتاة أخرى عرفتها.»

ابتسمت جيونا قائلة: «إذا كان هذا صحيح، فلا بد أنه نتيجة أسفاري إلى البلاد الأجنبية. فالعالم يجعل المرء يرى مبلغ روعة الناس في أكثر من عشر دول مختلفة. ولكن المحزن في الأمر أن المرء ليس في حياته وقت يسمح له بالتعرف إليها جميعاً.»

«أعتقد أن ابن عمي فاليريان كان قد أخبرني أنك كنت تعيشين في الخارج.»

أجابت: «لقد كنت كثيرة الأسفار، وهذا ما عليك أنت أن تفعل.»

وإذ رأت أنه لم يستوعب الفكرة، تابعت تقول: «لا أستطيع أن أصف لك مبلغ روعة الهند، وكم تختلف عن بقية بلدان العالم. ليس الهنود فقط هم الرائعو الجمال والتهذيب ولكن هناك الكثير من العقائد والأديان التي يتعلم الانسان منها شيئاً جديداً كل يوم، كما يتعلم من البلاد نفسها.»

رفعت بصرها إلى غروب الشمس: «بالنسبة إليّ، الهند هي بلاد مشرقة وغامضة فالغموض هو جزء من روح الشخص وقلبه وعقله أيضاً.»

كانت تتكلم وقد شردت نظراتها في الذكريات فنظر إليها وسأل: «وما الذي يمنعني من الذهاب بنفسي لأرى ما تتحدثين عنه وقد أشعر بمثل شعورك نحو كل هذا.»

فقالت: «إذا كان لديك ما يكفي من المال فاذهب إلى الهند. فالمال هو العقبة الوحيدة التي تعترض رغبات معظم الناس.»

صرخ الفيسكونت فجأة: «لقد حللت المشكلة، لقد أجبت

على السؤال الذي ما انفك يشغل بالي طوال الاسبوعين الماضيين.»

سألته: «وما هو هذا السؤال؟»

أجاب: «السؤال هو ما الذي عليّ فعله؟ أو بالأحرى، كيف يمكنني... أن أنسى؟»

لفظ الكلمة الأخيرة بصوت خافت، فقالت جيونا بسرعة: «إنني أدرك ما لا بدّ أن يكون عليه شعورك الآن، ولهذا السبب عليك أن ترحل بعيداً.»

فقال: «سأرحل طبعاً. ولكنني لم أكن أعرف مكاناً يمكنني الذهاب إليه. كما أنني لا أريد أن أكون وحدي في أي مكان في انكلترا.»

قالت: «كلا، بالطبع فهذا سيزيد من تعاستك وستبقى حزيناً على الماضي وهذا ما يجب ألا تفعله.»

نظرت نحو غروب الشمس وهي تقول: «هناك ينتظرك مستقبل جديد، مستقبل غريب يختلف عن كل شيء رأيته من قبل. ولكن إذا لم تجد الهند بمثل الروعة التي أتوقع أن تجدها، فهناك بلاد كثيرة أخرى ستمنحك مفاهيم جديدة وكذلك طموحات جديدة أيضاً.»

قال الفيسكونت: «شكراً، لقد أريتني مركز تلك المتاهة، وأنا أعلم الآن أن بإمكاني ايجاد طريقي.»

ورفعت جيونا عينيها إليه باسمة، فابتسم بالمقابل، ومد يده ليربت على كتفها.

* * *

عندما انعطف الدوق حول الزاوية، رأى جيونا والفيسكونت واقفين يتبادلان النظرات والابتسام.

www.rewayti.net

رأى أنه لا يمكن أن يكون هناك فتى وفتاة أكثر جمالاً وشاعرية منهما... ولكن ذلك لم يبعث السرور في نفسه.

وبدلاً من ذلك، تملكه شعور اقرب من الغضب أخذ يتصاعد في داخله.

ثم، بالنظر إلى ذكائه، اكتشف أن ما يشعر به لم يكن سوى الغيرة.

وكان اكتشافاً بعيداً عن التصديق والتوقع ما ملأه ذهولاً ودهشة.

الفصل السادس

أمضى الدوق ليلة أرقة كان يحاول أثناءها إقناع نفسه أن ما شعر به حين رأى جيونا ولوسيان في ذلك الموقف الشاعري، لم يكن الغيرة، محدثاً نفسه بأن السبب لا بد أن يكون قلقه وتوتره لعدم سماعه أي خبر عن السيد جارفيس.

مهما كان السبب، فالفكرة بحدّ ذاتها كانت سخيفة. إذ كيف يمكن لمن هو في مثل سنه أن يهتم عاطفياً بفتاة في الثامنة عشرة؟

كان قد سبق وطمأن نفسه، ليس لمرة واحدة، ولكن لأكثر من عشرة مرات، أن اهتمامه بجيونا ليس شخصياً أبداً.

فقد كان غرضه الأساسي هو احضار السيد جارفيس للمثول أمام العدالة، لغرضين الأول هو لأجل معاملته القاسية تلك لمن هي أقرب إلى أن تكون فتاة صغيرة، والثاني لسلوكهما، هو وابنته المخجل والماكر إذ حاولا أن يخدعا لوسيان.

ولكن، رغم محاولاته تلك، فقد كان من المستحيل عليه ألا يجد نفسه، لعشرات المرات، يفكر في جيونا... في جمالها اليوناني الغريب وفي التعبير الذي يبدو في عينيها عندما تنظر إليه.

أثناء طريقه عائداً إلى منزله في ألفرستود، كان يفكر في أن نوع مشاعره نحو لوسيان، لم يكن له لزوم.

www.rewayti.net

وبينما كانا يمران في الطريق الضيق الذي يفصل بين منزله ومنزل جدته، قال لوسيان بلهجة عفوية: «لقد قررت السفر إلى الهند.»

هتف الدوق بدهشة: «إلى الهند؟ وما الذي جعلك تفكر بالسفر إلى هناك؟»

«لقد أقنعتني جيونا بأن هذه فكرة جيدة، كما أنني أريد أنا حقا الرحيل.»

ساد الصمت للحظات قبل أن يسأله الدوق: «هل تفكر هي في مرافقتك؟»

«كلا بالطبع! ما الذي يجعلك تفكر في أنها ستأتي معي؟ هذا إلى أنني أريد السفر وحدي.»

وإذ سر لوسيان لموافقة الدوق على ذلك، أخذ يتحدث بشوق عن الأماكن التي يرغب في زيارتها، إلى أن وصلا إلى منزل ألفرستود.

حيث أن الدوق كان مصمماً على ألا يعلم أحد بأن جيونا تقيم مع جدته، فقد شدد على ذلك حين غادرا لندن حيث يقيمان، هو ولوسيان.

فقد قال للخدم، بعد وصوله، بأنه قد تناول طعام العشاء في منزل جدته.

ولأن الأخبار الهامة في المزرعة تصل على أجنحة الطير، فقد كان واثقاً تماماً من أن الخدم لديه في هذه الأثناء، وكذلك عدد من أناس آخرين، قد عرفوا بأن جدته لديها زائر.

كان يأمل حيث ان لديه الكثير من المشاغل في منزله في المزرعة، بأنه ليس من الممكن أن يربط أحد اختفاء جيونا به ولا بأي شكل كان.

ومع ذلك، عندما أصبح وحده، وجد نفسه يفكر كم كانت تبدو جميلة في ثوبها الجديد، وكان من المستحيل ألا يتملكه السرور للدفء والاخلاص اللذين ظهرا في صوت جدته وهي تتكلم عنها.

شيء واحد حدث في هذا اليوم، لم يكن متوقعاً، ألا وهو اقناع جيونا للوسيان بالرحيل، ومن هنا أصبح من الصعب على أي كان، حتى على جدته، رغم كل مهارتها ودهائها، أن تشجعها على الاهتمام به.

وحدث الدوق نفسه بأن الوقت ما زال مبكراً بالنسبة للوسيان لكي يلاحظ جمال أي فتاة اخرى بعد كلاريبيل.

ومرة أخرى أخذ يبرز ذلك السؤال في ذهنه والذي هو، لماذا تملكه ذلك الشعور الغريب عندما رأى جيونا ولوسيان في ذلك الموقف الشاعري؟

أيقظه هيبرت في الصباح كالعادة، فذهب للنزهة على صهوة جواده وهو يعلم أن لوسيان لا يمكن أن يستيقظ مبكراً للذهاب معه.

قاوم رغبة تملكته في الاتجاه نحو منزل جدته، وبدلاً من ذلك أخذ يركض بحصانه بين المروج في الاتجاه المعاكس.

وعندما عاد من نزهته متأخراً عن العادة، كان الفطور في انتظاره. وكان قد أنهى طعامه لتوه عندما دخل رئيس الخدم.

قال معلناً: «لقد وصل السيد ميدليتون من لندن لرؤيتك يا سيدي.»

فهتف بدهشة: «السيد ميدليتون؟»

www.rewayti.net

وقبل أن يقول أي شيء آخر، كان ميدليتون يدخل غرفة الطعام.

هتف الدوق: «ما الذي أحضرك باكراً هذا الصباح؟ هل احترق البيت أم سلب اللصوص كل ما أملك؟»

أجاب السيد ميدليتون: «لا شيء من هذا، يا سيدي الدوق.»

وانتظر إلى أن خرج رئيس الخدم وأصبحا بمفردهما ثم قال: «لقد جاءتني الليلة الماضية أخبار، لذا علي أن اخبرك بها حالاً.»

«عن السيد جارفيس؟»

أومأ ميدليتون برأسه.

دعاه الدوق إلى الجلوس: «إجلس وهات ما عندك، أتريد فنجاناً من القهوة؟»

أجاب: «أشكرك، يمكنني الانتظار، ولكن هذا الأمر مستعجل.»

«أنا واثق من هذا. لا بد أنك غادرت لندن قبل الفجر.»

جلس السيد ميدليتون، ثم أخرج بعض الأوراق من حقيبته وهو يقول: «لقد كان كلامك صحيحاً تماماً، يا سيدي، عندما قلت إنك تشتبه في أن ثمة فضيحة ما، وهي في الواقع أسوأ بكثير مما فكرنا.»

بان الرضى على وجه الدوق وهو يجلس بكل راحة ويأخذ في الاستماع.

تابع السيد ميدليتون: «لقد كنا عرفنا من قبل أن والد السيد جارفيس كان قد كون ثروة معتبرة من تجارة العبيد، وتابع ذلك ابنه السيد جارفيس ولكن على مستوى واسع.»

قاطعه الدوق قائلاً: «أظن مركز سفنه كان في ليفربول.»

أجاب ميدليتون: «معظمها. ولا أظنني بحاجة للقول بأن سمعته كتاجر عبيد تقول بأنه كان أكثر زملائه قسوة وجشعاً.»

فقال الدوق: «هذا ما تصورته.»

تابع ميدليتون: «على كل حال، في سنة ١٨٠٠ حدث لحمولة من العبيد على احدى سفنه من أفريقيا أن منعت من دخول مرفأ سافانا لأن عدداً كبيراً من الزنوج على ظهرها كانوا قد أصيبوا بعدوى الحمى الصفراء.»

وكان الدوق يعلم أن هذا يستلزم حجرات صحية مشددة لأن الحمى الصفراء معروفة بسرعة انتشارها.

وتابع ميدليتون: «وصادف أن السيد جارفيس كان في سافانا في ذلك الحين منتظراً أن يتلقى ثمناً مرتفعاً لعبيده الذين كانوا سينزلون من السفينة ليوضعوا في أماكن مسورة، انتظاراً لحضور الشارين المرتقبين لتفحصهم.»

أومأ الدوق برأسه إذ كان يعلم أن الاجراءات المختصة بالعبيد هذه، والتي كان قد قرأ عنها في التقارير، قد وضعت أمام البرلمان لدراستها.

تابع ميدليتون: «يبدو أن السيد جارفيس قد ثار غضباً عندما أرغمت سفينته على ان ترسو خارج المرفأ، ولم يستطع الاقناع ولا الرشوة منه أن تغير الحظر من قبل المسؤولين حتى يتلقوا القرار الطبي بالسماح بذلك.»

توقف السيد ميدليتون يلتقط أنفاسه، فقال الدوق: «وماذا حدث بعد ذلك؟»

www.rewayti.net

«يبدو من التقارير التي تلقاها من أرسلناهم للتحري عن ذلك، بأن السيد جارفيس غير فجأة موقفه كلياً وأبلغ كل إنسان أن العزل الصحي كان حكيماً للغاية والاشخاص الوحيدون الذين كان يأسف لأجلهم هم القبطان وبحارة السفينة.»

رفع الدوق حاجبيه ولكنه لم يقل شيئاً، بينما تابع ميدليتون كلامه: «وفي الواقع، كان من الأسف لأجلهم بحيث أرسل إليهم عدة براميل من الشراب المنعش وذلك لكي يمتعوا أنفسهم على الأقل، أثناء الانتظار.»

خفض السيد ميدليتون صوته وهو يقول: «لكن السفينة تلك الليلة، حسب التقارير التي تلقيتها، كانت قد احترقت لسبب من الأسباب، ولم يكن هناك من هو مستيقظ لاعطاء الانذار.»

قال الدوق ببطء: «أتريد القول إن الشراب كان يحتوي منوم؟»

أجاب ميدليتون: «كان هذا افتراض صعب اثباته، فقد احترقت السفينة بسرعة ولم ينج منها سوى أشخاص معدودين.»

«ولماذا حصل ذلك؟»

«لأن في سفن السيد جارفيس، كل العبيد كانوا مقيدين في عنابر السفن. ولم يكن هذا النظام مسموح به في تلك التجارة، ما عدا في السفن التي تقوم فيها اضطرابات أو محاولات من أولئك المخلوقات البائسة لالقاء أنفسهم في البحر.»

«وهكذا لم يكن بإمكانهم النجاة بأنفسهم.»

أجاب ميدليتون: «لم ينج أحد سوى اثنين من البحارة كانت حروقهم سيئة.»

فصرخ الدوق:

«ذلك أكثر ما سمعته في حياتي من وحشية.»

قال ميدليتون: «ونأتي الآن إلى النقطة الرئيسية من تحقيقاتنا يا سيدي، فقد تقدمت شركة السفن إلى شركة التأمين بطلب مبلغ ضخم، وكانت شركة التأمين تلك هي التي فكرت في أن في الأمر شبهة الاحراق المتعمد. وقد اتصلت أنا بهم فقالوا إنه كان بإمكانهم رفع قضية كبرى ضد شركة السفن والتي لم يكن السيد جارفيس رئيس مجلس ادارتها فحسب، وإنما مالك القسم الأكبر من أسهمها.»

سأله الدوق: «ولماذا لم يرفعوا القضية إذن؟»

أجاب: «كانوا على وشك القيام بذلك عندما وجدوا أن مالك تلك السفينة بالذات كان مدير آخر للشركة.»

«ومن كان ذلك المدير؟»

«جايمس ستامفورد شقيق السيد جارفيس.»

أجفل الدوق.

لقد ابتدأ الآن يفهم السر الذي جعل والد جيونا يبقى خارج البلاد تلك المدة الطويلة.

وكان ميدليتون يقول: «وصدر أمر بالقبض على جايمس ستامفورد، ولكنهم وجدوا أنه كان قد سافر إلى خارج البلاد قبل ذلك بسنة، ومع أن أمر القبض ذاك ما زال ساري المفعول، إلا أنه لم ينفذ لأنه لم يعد إلى هذه البلاد.»

www.rewayti.net

فهتف الدوق بخشونة: «هذا هو السبب إذن في تخليص السيد جارفيس نفسه من كل هذه المشاكل.»

قال ميدليتون: «إن رجال التحري الذين استأجرتهم للبحث في هذا الموضوع عثروا في ليفربول على رجل كان قد تقاعد من الشركة منذ سنوات كثيرة، فاستطاعوا اقناعه بأن يقدم اقراراً يعترف فيه بأنه تلاعب بالمستندات التي تختص بملكية السفينة.»

قال الدوق: «يبدو أنه لم يكن من الصعب ابدال اسم جايمس باسم جارفيس.»

أجاب ميدليتون باسماً: «هذا بالضبط ما قاله ذلك الموظف عندما سئل.»

فتمتم الدوق: «يا لها من مهارة، مهارة بالغة.»

تابع ميدليتون يقول: «لقد أسهبت الصحف كثيراً عن هذه القضية، في ذلك الحين. فقد كان السيد ويليام ويلبرفورس قد ألقى أسئلة في البرلمان بهذا الشأن، كما أن المطالبين بالغاء هذه التجارة قد هاجموا بعنف أصحاب السفن الذين يقيدون العبيد في السفن لتكون النتيجة عدم تمكن هؤلاء من النجاة بأنفسهم في حال تعرض السفينة لخطر ما. وعلى كل حال، كل ذلك الجدال همد في النهاية.»

رأى الدوق كل شيء الآن بوضوح تام، وأدرك مبلغ دهاء السيد جارفيس غير العادي.

فقد كان شقيقه جايمس قد سبق وقرر الاقامة في الخارج وذلك إلى أن تهدأ الأقاويل التي نتجت عن فضيحة زواجه ذاك. كما أن استعداد شقيقه السيد جارفيس لجعله

رجلاً بالغ الثراء إذا هو أنقذه وانقذ اسم الأسرة من العار، وذلك بمتابعة الغياب عن الوطن إلى زمن غير محدد، كل هذا لم يبد له في ذلك الحين، ذات مشقة، وذلك في بداية زواجه حيث كان من الحب لزوجته بحيث لم يكن يطلب سوى أن يكون معها هي بعد ان أسرت قلبه.

إنه يفهم الآن ما كانت تعنيه جيونا حين قالت إن والدها، في المدة الأخيرة، كان يبدو عليه الضيق أحيانا والشوق إلى الوطن والى مسقط رأسه ولمختلف أنواع الرياضة التي كان يستمتع بها.

أما ما لا يمكن غفرانه فهو أن السيد جارفيس، بعد أن أنقذه شقيقه من تحقير وتعيير المجتمع، عدا عن أي شيء آخر، يكون جزاءه منه أن يسلب ابنته جيونا حقوقها ويسيء معاملتها بذلك الشكل خوفاً من أن تفضح سره الأثيم بشكل ما.

لقد أصبح الآن لزاماً على السيد جارفيس أن ينال عقابه، وهذا ما صمم الدوق عليه.

قال مخاطباً السيد ميدليتون: «لا أظن ثمة صعوبة الآن في اثبات ما تخبرني به؟»

أجاب هذا: «كلا، مطلقاً يا سيدي. فقد استغرقت تحرياتي هذه وقتاً أطول مما كنت تريده يا سيدي لأنني أردت أن تكون كل التفاصيل التي سأحصل عليها قوية وموثوق بها، ولأن أتمكن من احضار شهود عدل ثقة لدى المحاكم.»

فقال الدوق: «إنني شاكر لك لأقصى حد، يا ميدليتون.»

كان السرور واضحاً على وجهه وهو يقول هذا.

وقف السيد ميدليتون، وهو يقول: «سأضع هذه الأوراق

www.rewayti.net

على مكتبك يا سيدي، لكي يمكنك مراجعتها على مهل. هنالك شيء واحد أحب أن أضيفه والذي هو سيء.»

نظر الدوق إلى سكرتيره بحدة، وسأله: «وما هو؟»

فقال ميدليتون متردداً: «هو أنني على ما أظن أن السيد جارفيس قد أدرك الآن بأننا نقوم بتحريات عنه.»

«وكيف عرفت ذلك؟»

«لقد كانت التعليمات التي أعطيتها لرجال التحري هي أن يكون عملهم في نطاق السرية التامة. ولكن تصرفات موظف قديم في الشركة التي ما يزال السيد جارفيس رئيسها، وكذلك غيابه عن عمله في اليوم التالي لذهابهم إلى هناك، كل ذلك جعلهم يرتابون في أنه ذهب ليخبر السيد جارفيس بما يجري.»

قال الدوق: «هذا حظ سيء. وأظنه يعلم الآن، أو يتكهن على الأقل، بأنني وراء هذه التحريات التي تقوم بها.»

«لا يمكنني استبعاد شيء، يا سيدي الدوق.»

لاذ الدوق إلى الصمت.

أخذ يفكر في جيونا، وإذا بفطنته، والتي طالما أنذرته بالخطر أثناء الحرب، أخبرته بأنه، إذا كان السيد جارفيس قد أدرك بأنه هو وراء تلك التحريات، فلا بد أن يداخله الشك إذن في أنه قد يكون هو وراء اختفاء جيونا أيضاً.

كان الشعور بالخطر، من القوة والالحاح، بحيث حدث نفسه بأنه من الضروروي جداً أن يرى جيونا حالاً لكي ينبهها، ليس فقط إلى ما كان قد حدث، ولكن أيضاً إلى أنه من الضروري نقلها إلى مكان آخر.

وقف وهو يقول: «شكراً يا ميدليتون. أشكرك جداً. تفضل

الآن وتناول طعام الافطار بعد رحلتك الطويلة هذه، وسأراك فيما بعد هذا الصباح.»

«شكراً يا سيدي الدوق.»

غادر الدوق غرفة الطعام، وعندما وصل إلى الردهة أخذ يتساءل عما إذا كان من الأفضل أن يذهب إلى منزل جدته ممتطياً حصانه أو راكباً العربة.

وإذا برئيس الخدم يتقدم نحوه قائلاً: «الجياد التي كنت أمرت يا سيدي باحضارها، تنتظر في الخارج.»

تذكر الدوق عندئذ ما كان قد نسيه، وهو أنه كان قد أخبر سائسيه بأنه يريد أن يرى جوادان كان قد اشتراهما الاسبوع الماضي.

وكان قد قال: «سأقودهما بعربة الفيتون المكشوفة لأرى عملهما.»

فخطر له الآن بأنه، إذا هو ساقهما إلى منزل جدته فإنه سيضرب عصفورين بحجر واحد، وكذلك سيخفف مما يشعر به من قلق.

ولكنه ما لبث أن ضحك من مخاوفه هذه، إذ كان واثقاً من أن شعوره بالخطر هذا لا لزوم له.

إذ من المستحيل أن يتكهن السيد جارفيس بالمكان الذي تختبيء فيه جيونا.

ومع ذلك، لم يكن ثمة فائدة من المجازفة. فقال لرئيس خدمه: «إنني ذاهب إلى منزل جدتي.»

وعندما سار إلى الباب الأمامي، إذا بخادمه هيبرت يهبط السلم حاملاً زوجاً من القفازات النظيفة لاستبدالها بتلك التي كان سيده قد استعملها أثناء نزهته الصباحية.

www.rewayti.net

لم يعرف لماذا فكر بأن يصحب معه هيبرت. ودون أن يكلف نفسه الادلاء بأي تفسير، قال: «تعال معي، يا هيبرت. إنني أريدك.» ثم نزل الدرجات متوجهاً نحو العربة.

ولحسن الحظ، لم يكن بن هو مرافقه في العربة هذه المرة والذي لا شك كان سيشعر بجرح في كرامته لو أن سيده استبدله بهيبرت، وليس بأحد السائسين الفتيان.

قفز الدوق إلى مقعد القيادة، ثم أمسك باللجام.

وكان هيبرت قد هم بالجلوس على المقعد الصغير خلفه، لولا أن الدوق قد أمره بحدة أن يجلس إلى جانبه.

وسرعان ما تمكن الدوق من السيطرة على الجوادين. ومن ثم خرجا من الفناء، وبعد قطعهما مسافة في طريق تحفه أشجار السنديان، استدارا للسير في طريق معشوشب كان أقصر طريق يؤدي إلى منزل جدته.

ولم يتكلم هيبرت، ولكن الدوق أدرك أنه يمتلىء فضولاً. كما أن شعوراً بأن ثمة شيئاً سيحدث، كان يتملكه.

ولكن الدوق بقي صامتاً لا يدلي بأي ايضاح. وإنما قال فقط: «لدي شعور بأنني قد أحتاجك يا هيبرت، فكن جاهزاً ومتنبه.»

«ضد من أو ماذا، يا سيدي؟»

أجاب الدوق: «بصراحة، ليس لدي أية فكرة. ولكن ربما واجهتنا المتاعب.»

قال هيبرت بابتسامة عريضة: «أرجو أن يكون هذا صحيحاً، يا سيدي الدوق. فالمرء تخفّ قوته في أوقات السلم.»

فابتسم الدوق.

كان هذا ما يفكر فيه هو نفسه، ولكنه لم يكلف نفسه عناء الاجابة، وركز اهتمامه على جواديه.

* * *

لم تنم جيونا جيداً لأنها أحست، عندما قال لها الدوق تصبحين على خير، بأن شيئاً ما يزعجه.

لم تكن لديها فكرة عن ذلك الشيء، ولكن كان في صوته نبرة جافة، كما أن عينيه كانتا تنظران بحدة، وخيل إليها أنه استحال إلى شيء جعلته يبدو رجلاً غريباً لا يمكن الوصول إليه.

وسألت نفسها عن الذي يكون قد استجدّ، وعما تراها فعلت. ومع أنها استعادت في ذهنها كل ما قيل أثناء المساء، فإنها لم تجد ما يمكن أن يفسر هذا التحول المفاجيء في موقفه بين العشاء والوقت الذي تبادلا فيه تحية المساء.

فكرت في أنها، لولا وجود لوسيان، لكانت سألته عما إذا كان ثمة خطأ ما.

ولكن، لم يكن هنالك حقاً فرصة لذلك. وبعد أن انضم الدوق إليهما في الحديقة، عادوا على الفور إلى المنزل حيث ودع جدته.

وقد سألته جدته حينذاك: «هل سنراك غداً؟»

أجاب الدوق ببرود جعل جيونا تنظر إليه بدهشة: «ليس لدي فكرة.»

فقالت الدوقة: «حسناً، إنني وجيونا سننتظر عودتك بأتم

www.rewayti.net

الشوق، وذلك في أي وقت تشاء. كنت أتمنى لو تأتي لتناول طعام الغداء معنا.»

«سأفكر في ذلك.»

ثم ودع جدته بعدم اكتراث، واتجه نحو الباب.

لم يتحدث إلى جيونا، ولكنها لحقت به إلى الردهة ونظرت إليه بتوسل وهو يتناول قبعته العالية من أحد الخدم ثم يلقي على ذراعه الكاب المسائي.

ولم تستطع منع نفسها من تذكر كيف أعارها إياه لكي تدخل فيه الى فندق القرية متظاهرة بأنها شقيقته، وفكرت في أنه كان بإمكانها أن تضحكه لذكرى ذلك لو لم يكن مزاجه سيئاً بهذا الشكل.

كان يسير نحو الباب بينما هي تقول له باكتئاب: «تصبح على خير... يا سيدي الدوق.»

فلم يلتفت إليها وإنما قال فقط: «تصبحين على خير.» وكأنه كان يتكلم من القطب المتجمد الشمالي.

قال لوسيان: «تصبحين على خير، وشكراً.» وتساءلت عما إذا كان سيقول أكثر من هذا، ولكنه وكأنه أدرك أنه كان يحمل الدوق على الانتظار، أسرع خلفه لكي يقفز إلى العربة المقفلة.

انطلقا مبتعدين، بينما وقفت جيونا تنظر إلى العربة حتى توارت عن الانظار، عند ذلك شعرت وكأنه اخذ قلبها معه.

لم تعترف لنفسها بأنها تحب الدوق إلا بعد عدة ساعات أمضتها في غرفة نومها المظلمة.

همست في الظلام تقول: «أحبه... أحبه.»

ولكنها كانت تعرف أنها، بالنسبة إليه، أشبه بمن يتطلع إلى الحصول على القمر.

وهمست: «لقد أنقذني... لقد بعث في نفسي الأمل... ومنحني حياة جديدة. فكيف أطلب شيئاً... أكثر من هذا؟»

ولكنها كانت تعلم أنها، في الواقع، تريد منه أكثر من ذلك بكثير. تريده أن يعجب بها، أن يتقبلها، وقبل كل شيء أن يحبها.

ثم سألت نفسها كيف أمكنها أن تكون بهذه السخافة أو بالأحرى، الوقاحة... ومع هذا فقد كان الجواب واضحاً.

ذلك أنه ليس هناك من يمكنه أن يسيطر على الحب، وأدركت أن جهلها به فقط هو الذي لم يجعلها تدرك، منذ اللحظة التي رأته فيها، أنه قد استولى على قلبها فلم يعد ملكها.

«أحبه... أحبه...»

لم يكن لديها غير هذا تقوله. وأخذت تتقلب في سريرها من جنب إلى أن بدأت النجوم في السماء بالتلاشي في أوائل خيوط الفجر.

عند ذلك فقط استولى عليها النوم وكلمة أحبك على شفتيها.

* * *

استيقظت جيونا باكراً، وارتدت ملابسها قبل أن يصبح بإمكانها الذهاب إلى غرفة الدوقة بوقت طويل.

عندما وصلت جيونا إلى جانب سريرها بادرتها هذه

www.rewayti.net

قائلة: «يا له من يوم جميل. أرجو عندما يأتي صغيري لزيارتي، أن يأخذك لنزهة في العربة.»

فهتفت جيونا: «لشد ما أحب ذلك. ولكن ربما لديه... أشياء أكثر أهمية.»

قالت الدوقة بحزم: «لا أظن ذلك. ولكنني أتمنى لو كنت قد اقترحت عليه ذلك عصر أمس. فأنت سجينة هنا منذ وقت طويل، وستكونين آمنة تماماً، ولن يراك أحد إذا أنت ذهبت للنزهة في أنحاء المزرعة.»

تنهدت جيونا وقالت: «ثمة أشياء كثيرة أريد أن أتكلم عنها مع الدوق.»

كان في لهجتها، وهي تقول هذا، نوع من الكآبة جعل الدوقة تقول بسرعة:

«إنني واثقة من أنه سيدرك هذا وسيأتي إلينا لتناول الغداء معنا. أخبري آغنس بأنني أريد أن أنهض من سريري لأكون مستعدة عندما يحضر.»

ولاحظت الدوقة الحماس على وجه جيونا وهي تركض لتغادر الغرفة بحثاً عن خادمتها الخاصة، وأدركت أن الصغيرة دون شك، غارقة في حب حفيدها.

فقد كانت الدوقة من الخبرة الطويلة بحيث تدرك جيداً دلائل الغيرة عند الرجل.

كانت واثقة تماماً من أن سبب خروج الدوق متعمداً إلى الحديقة، ثم عودته وقد عقد ما بين حاجبيه، وهو يتصرف بشكل ينبىء عن أنه كان يسيطر على نفسه، كانت واثقة من أن سبب ذلك هو أن شعوره نحو جيونا لم يكن مجرد العطف فقط.

ورأت الدوقة أن أي فتاة أخرى بسن جيونا وهي أصغر من أن تناسب رجلاً محنكاً في التاسعة والعشرين من عمره، ولكنها لم تمض معها تلك الأسابيع الماضية دون أن تعرف كم هي ذكية.

كما أن أسفارها في أنحاء العالم قد جعلتها مختلفة جداً عن الفتيات الأخريات اللاتي لم يرين شيئاً سوى غرفة الصف قبل تقديمهن إلى المجتمع.

رأت أن جيونا لا تفكر في نفسها وإنما في الدول والناس والسياسة والدين وهذه هي الأمور التي تثير اهتمام الرجل في المرأة وليس الوجه الجميل.

ذلك أنه ليس ثمة من يعرف أكثر منها مبلغ غموض شخصية حفيدها، فمن هو ذلك الذي يمكنه أن يكون واثقاً مما إذا كان شعوره هو الحب، أم مجرد سأم؟

ثم قالت وهي تتنهد، ليس عليها سوى أن تنتظر وترى.

وذلك في الوقت الذي دخلت فيه خادمتها الخاصة الغرفة لكي تساعدها على النهوض وارتداء ملابسها.

وإذ كانت جيونا تعلم أن الدوقة لن تخرج من غرفتها قبل فترة، فقد نزلت إلى الطابق الاسفل وهي تتساءل كيف عساها ان تمضي الوقت في هذه الاثناء.

كانت تعلم أن ما تريده حقاً، وذلك لشوقها البالغ لرؤية الدوق، هو مراقبة الطريق لترى أول ظهور لعربته.

وأخذت تقول في سرها: ليته يجيء... تعال حالاً... تعال... حالاً... حالاً.

كانت مع كل درجة هبطتها على السلم، تكرر هذه

www.rewayti.net

الكلمات، كما وشعرت بأنها تطير إليه على أجنحة الريح فتجعله ينتبه إلى مقدار حاجتها إليه.

ثم، وقبل أن تصل إلى أسفل السلم، إذا بها تسمع صوت عجلات عربة فخفق قلبها بعنف معتقدة أن تمنياتها قد تحققت وجاء الدوق.

ثم رأت سمبسون العجوز يسير ببطء شديد على قدمه المصابة بالروماتيزم، نحو الباب المفتوح وصوت رجل يقول: «أخبر الآنسة ستامفورد أنني أريد التحدث إليها.»

فهتف سمبسون بدهشة: «الآنسة ستامفورد؟ لا يوجد عندنا أحد بهذا الاسم.»

فقال الرجل: «بل يوجد. إنني أعني السيدة الشابة التي تقيم هنا.»

سأله سمبسون: «الآنسة أندرياس؟ هل هي السيدة التي تعنيها؟»

«هذا صحيح. قل لها أن تأتي إلى الباب.»

تسمرت جيونا في مكانها عندما سمعت الرجل يسأل عنها، وكانت الآن واقفة أسفل السلم متمسكة بالدرابزين.

حدثها قلبها بخفقان مفاجيء، بأنه ثمة أمراً سيئاً يحدث.

ثم لمع في ذهنها أن ليس هناك من يعرف اسمها الحقيقي سوى رجل واحد، هو عمها.

فكرت بذعر في أن عليها الاختباء، ولكن ما أن همت بالعودة لتصعد السلم هاربة، حتى التفت سمبسون نحوها حيث كان قد رآها من قبل، كما أن الرجل الذي كان يتحدث إليه رآها هو أيضاً. فقال بصوت تجاوب في الانحاء: «ها هي.»

وقبل أن تستطيع هي الحركة، فتستدير لتركض صاعدة السلم، كان هو قد دخل إلى الردهة وحملها بين ذراعيه.

صرخت مذعورة، ولكن قبل أن تحتج أو تدرك ما يحدث، كان هو قد ركض بها خارجاً هابطاً الدرجات، ليرفعها ويلقي بها على مقعد عربة مكشوفة.

وما أن همت باطلاق صرخة أخرى مليئة بالرعب، حتى أدركت من هو الذي كان يقود العربة فتلاشى صوتها بين شفتيها.

قال السيد جارفيس بخشونة: «اربطها إلى العربة يا جايك.» فربطها هذا إلى ظهر مقعدها بحزام من الجلد، ما منعها من الحركة.

ثم سار إلى الخلف حيث قفز إلى المقعد الخلفي بينما أهوى السيد جارفيس بسوطه على الجياد فانطلقت العربة بهم.

وانطلق صوتها ضعيفاً، متفككاً: «ما الذي... تفعله... إلى أين... تأخذني؟»

حول عمها عينيه عن الجوادين لينظر إليها، ففكرت أنها لم تر من قبل، ملامح تنطق بالشر والاثم كما ترى الآن.

قال لها: «إنني أعيدك إلى مكانك الحقيقي، وسأجعلك ليس فقط غير قادرة على الهرب مرة أخرى، وإنما نادمة على محاولتك الهرب هذه.»

حاولت أن تقول بجهد: «ليس لك... الحق في... أن تفعل بي... ذلك.»

أجاب متجهماً: «بل لي كل الحق. فأنا الوصي عليك،

www.rewayti.net

وعندما انتهي منك لن تتمكني بعد ذلك من التحدث عن الحقوق.»

كان في لهجته من الوعيد ما جعل جيونا تشعر وكأنه يسلب منها الحياة، وأنها مشرفة على الموت كما كانت عندما أنقذها الدوق.

أخذت تتساءل عما جعل عمها يعرف مكانها، وعما سيفعله الدوق عندما يعلم برحيلها، وعما إذا كانت ستراه مرة أخرى.

كانت تعلم أن عمها لا يتحدث عبثاً عندما يقول لها بأنه سيجعلها غير قادرة على الهرب مرة أخرى. وأدركت دون أن يصرح بذلك، أية معاملة تنتظرها في منزله.

وكأنما شعر بما تفكر فيه، فقال: «كما أنك مربوطة الآن إلى العربة بجانبي، سآمر في المستقبل بربطك إلى جدار غرفتك. ستعاملين كسجين يا جيونا، وستتلقين نفس العقاب الذي يتلقاه أي مجرم آثم، لأنك أنت كذلك.»

فأغمضت جيونا عينيها.

شعرت وراء كلمات عمها هذه بأنها تذوق سلفاً لذعات السوط التي كانت واثقة من أنها ستتلقاها فيما بعد، وكل ما كانت ترجوه هو أنه إذا كان عازماً على قتلها، وهذا ما كانت واثقة منه، فليكن ذلك سريعاً.

ولكن ما لبثت الدهشة أن تملكتها عندما رأت السيد جارفيس يبطيء من سير جواديه.

فتحت عينيها لتجد أنهم في طريق ضيق تتعانق غصون الاشجار فوقه.

كان يشبه النفق ما عدا أن أشعة الشمس كانت تتخلل

أوراق الشجر محدثة نقوشاً ذهبية كانت ستراها رائعة الجمال لولا هذا الظرف المخيف الذي تمر به.

قال السيد جارفيس مخاطباً الرجل الجالس خلفه: «هل هذا هو المكان الصحيح، يا جايك؟»

عند ذلك برز رجل آخر من الأجمة بجانب الطريق وعندما نظرت إليه جيونا رأته ضخم الجثة متين البنية بشكل غير عادي ما جعلها تظن أنه لا بد ملاكم. وبعد لحظة انضم إليه الرجل الذي كان جالساً خلف عمها.

حدقت جيونا فيهما برعب وقد أدركت أن رأيها كان صائباً.

كانا ملاكمين، وكانا يعقدان منديل يد حول الرقبة.

قال السيد جارفيس بحدة: «ساعدني بإمساك الحصانين.»

فامتثل الرجل المدعو جايك لما طلبه منه، فجذب الحصانين موقفاً العربة بالعرض ما جعلها تسد الطريق تماماً.

وعندما حاز ذلك على موافقة السيد جارفيس، احنى الجوادان رأسيهما وأخذا في قضم الحشائش، ما أدهش جيونا أن يسمح لهما بذلك.

ثم دس يده اليسرى، والتي كانت إلى ناحيتها في جيب سترته والتي كانت تغطي الظهر منها طبقة ثانية كان قد سبق لها رؤيته يرتديها، فاستغربت حاجته إليها في هذا اليوم الحار.

عندما دس يده في جيبه، بدا وكأنه يتفحص شيئاً، وخفق قلبها فزعاً إذ كانت واثقة من أنه مسدس.

www.rewayti.net

ثم تناول اللجام بيده اليسرى، وسحب من الجيب الآخر مسدساً ثانياً نظر إليه ليرى إن كان جاهزاً، ثم أعاده إلى جيبه.

سألته: «ماذا تفعل...؟ ومن تنتظر؟»

وظنت أن عمها لن يجيبها على سؤالها، ولكنه قال: «أظنك قد تحبين، يا ابنة شقيقي العزيز، أن تريني أقتل الرجل الذي أخذ على عاتقه، بتحريض منك طبعاً، بأن يهدد أمن حياتي.»

فشهقت جيونا بينما تابع هو قائلاً: «وهذا، طبعاً، ما لا يمكنني السماح به، ولهذا، لأنك تدخلت وأثرت فضوله، سترينه وهو يموت.»

سألته بذعر: «ما... ما الذي تتحدث عنه... ما هذا الذي... تقوله؟»

قال: «إنك تعرفين ما اقوله. طبعاً سيكون من سوء الحظ البالغ أن أنبل دوق، وبهذه الوسامة، قد هاجمه قطاع الطرق، وهم لا يتورعون عن شيء، ثم تركوه قتيلاً على أرضه.»

«كيف تفكر... بشيء كهذا...؟ كيف تفكر في... قتل أي انسان... وخصوصاً الدوق...؟»

«لأنني أعلم أن مقتله سيحزنك، ولهذا أحضرتك إلى هنا، انك الابنه غير الشرعية، لكي تشاهدي موته.»

«كيف تفعل شيئاً كهذا...؟ كما أن ما تقوله... عن والدي ليس صحيحاً. لقد كانا... متزوجين وقد رأيت... أوراق الزواج.»

قالت جيونا هذا صارخة تقريباً، ومرة أخرى نظر إليها

عمها وقد كسا وجهه من الاشمئزاز ما جعلها تنكمش مبتعدة عنه قدر ما سمح لها الحزام المربوطة به.

وقال: «إذن فقد اكتشف الدوق الفضولي ذلك؟ إن هذا سبباً آخر يجعلني أقتله، تماماً كما أنوي ذلك بالنسبة إليك فيما بعد.»

فشهقت قائلة: «إنك مجنون. ولكن إذا كان يجب أن أموت... فأرجوك ألا... تقتله كان ذلك منه مجرد... شهامة ورغبة في المساعدة.»

قال ساخراً: «وبالغ الشهامة والعون. كما أنه متلهف كما علمت، لتقديمي للعدالة، وهو أمر لا أنوي السماح بحدوثه.»

«تحدث إليه... توسل إليه أن... يدعك وشأنك. ولكن لا تقتله... أرجوك.»

فقال: «حيث أنه يبدو أنك واقعة في حبه، فأنا على حق إذن حين فكرت في أن ما يحزنك هو رؤيته يموت أمام عينيك. وما أجمل أن يحدث ذلك وأنت ترتدين هذا الثوب النفيس الذي لا شك أنه هو الذي دفع ثمنه.»

أخذت عيناه تجولان فوق ثوبها لحظة، ثم عاد ينظر إليها قائلاً: «يبدو أنك تحبين أن يراك الدوق في أجمل مظهر، ولكن دعيني أقول لك شيئاً. إذا أنت صرخت أو حاولت انذاره وذلك قبل أن يظهر، فسأهشم وجهك بهذا المسدس ما يجعل كل رجل ينظر إليك في المستقبل، يتملكه الرعب من منظرك.»

وعندما رأى الفزع في وجهها أضاف يقول: «ليس ثمة جمال في أنف مكسور وعدم وجود أسنان. كلا جيونا، الأفضل أن تبقي صامتة.»

www.rewayti.net

فأخذت تقول متوسلة بيأس، ليس لأجل نفسها بل لأجل الدوق: «أرجوك... أرجوك...»

وإذا بجايك يهتف وهو ينظر إلى الطريق أمامه: «أظنه قادم، يا سيدي.»

قال السيد جارفيس آمراً: «إفعل إذن ما قلته لك.»

ورأت جيونا الرجل الآخر يسحب مسدساً من جيبه.

فحبست أنفاسها.

كانت تسمع من بعيد، كما يسمع جايك، صوت وقع حوافر جياد، إلى أن برز من حول الزاوية أمامهم بمسافة قصيرة زوجان من الجياد الفاخرة ليظهر بعد ذلك، بثانية واحدة، الرجل الذي كان يقودهما.

ولم تكن لتخطىء مرأى قبعة الدوق المائلة. بينما كان يرتدي سترة الركوب.

ولا بد أنه رآهم في نفس اللحظة التي رأوه فيها، لأنه ابتدأ يبطىء من سير جواديه. ثم ما ان اقتربوا منه، حتى رأت جيونا هيبرت جالساً بجانبه.

قال السيد جارفيس ساخراً: «صباح الخير يا سيدي الدوق.»

أجاب الدوق: «أظنك تنتظرني لكي تتحدث إلي. هل في نيتك أن نتبادل الحديث صراخاً، أم ترى انه من الأفضل أن نترجل إلى الأرض ونتحدث بطريقة أكثر تهذيباً؟»

أجاب السيد جارفيس: «حيث أن لديك من يمسك باللجام عنك، كما أنني لا أريد أن أثق بابنة شقيقي بتسليمها جيادي، فأنا أقترح أن تأتي إلي.»

بعد أن قال عمها هذا، أدركت جيونا أن جايك كان

مختبئاً، ومع أنها أرادت أن تصرخ بالدوق لكي لا يترجل، لم تستطع أن ترى في ذلك أية فائدة مكتسبة.

ناول الدوق اللجام إلى هيبرت، وما أن ترجل من عربته حتى برز الملاكم الآخر من خلف الأجمة شاهراً مسدسه على هيبرت.

ثم، وبسرعة فائقة جعلت جيونا تحبس أنفاسها، اندفع جايك نحو الدوق محاولاً ضربه.

أخذ الدوق على حين غفلة، ولكنه مع هذا تمكن من تجنب تلك الضربة التي كانت ستلقي به أرضاً دون شك، فلم تحدث سوى أن ألقت بقبعته من فوق رأسه بعد أن لامست كم سترته.

وما لبث الاثنان أن أخذا في الصراع بطريقة رأت فيها جيونا أنهما كانا كفؤين للغاية وملاكمين خبريين تماماً.

تملكها الرعب لحظة، من أن تطرح ضربة أخرى من جايك، الدوق أرضاً. فقد كانت قد لاحظت مقدار قوته حين حملها هابطاً بها الدرجات ليلقي بها في العربة وكأنها لا شيء.

وكانت ترى ضخامته وقوته وهو ينهال بلكماته على الدوق مرة بعد مرة ليجد لدهشته وغضبه، أن لكماته تلك كانت دون تأثير.

ذلك أن الدوق، بعد أن تجاوز مرحلة المفاجأة لهذا الهجوم المفاجيء، أخذ الآن يقاتل بطريقة خبيرة كان قد تعلمها في معهد جاكسون للملاكمة.

ورغم أنه كان يقاتل مرتدياً سترته بعكس خصمه، إلا أنه كان يدرك بأنه يقاتل دفاعاً عن حياته.

www.rewayti.net

وعلى كل حال، لأنه كان أنحف جسماً، وأخف وزناً وأرشق حركة من جايك، أخذ يوجه إليه ضربات متلاحقة بشكل تثير الحيرة بينما بقي هو سليماً دون أذى.

ثم، وبسرعة لم تستطع جيونا معها أن تدرك ما حدث، وجه الدوق لكمة عنيفة إلى ذقن جايك، فارتد رأسه إلى الخلف، وعندما أخذ يترنح، ضربه الدوق مرة أخرى فسقط هذا إلى الخلف على الطريق دون حراك.

عند ذلك التفت الملاكم الآخر، والذي كان مصوباً فوهة مسدسه إلى هيبرت يمنعه من الحراك، التفت ليرى ما حدث، وعند ذلك ابتدأ الخادم بالعمل.

وجه إلى عنق الرجل لكمة تمنعها قوانين الملاكمة بكل تأكيد، ولكنها كانت تجلب الموت، كما تعلمها من الصينيين أثناء أسفاره.

وسقط الرجل كشجرة قطعت بفأس، ولكن نظرات جيونا كانت مسمرة على الدوق فقط.

كانت تكسو وجهه ابتسامة رضى لصرعه مثل هذا الخصم، وعند ذلك رأت عمها قد أخرج مسدسه من جيبه الأيمن وصوته يعلو ساخراً: «أحسنت، يا سيدي الدوق، ولكن ما زالت هناك الجولة الثانية، لسوء الحظ.»

وما أن رفع مسدسه بشكل مسرحي يصوبه إلى الدوق الأعزل من أي سلاح، حتى دست جيونا يدها في جيب عمها الأيسر ناحيتها، ثم أخرجت المسدس الآخر.

ودون تفكير أو حتى توقف، صوبته إلى رأسه وجذبت الزناد.

ومع انطلاق الانفجار ارتد المسدس في يدها. ومضت

لحظة لم يتحرك فيها السيد جارفيس ما لبث بعدها أن انكفأ إلى الأمام ليسقط بعد ذلك من العربة وإلى الطريق.

أثناء ذلك، لا بد أن أصابعه اشتدت على زناد مسدسه، فانطلقت منه الرصاصة. وأخاف الانفجار الثاني جوادي الدوق فوقفا على قوائمهما الخلفية.

أخذ هيبرت يجاهد في سبيل السيطرة عليهما، ولكنهما أخذا يحركان العربة إلى الأمام وإلى الخلف وأثناء ذلك أزعجا جوادي السيد جارفيس اللذين كانا حتى الآن، هادئين يرعيان العشب.

وابتدأ عراك بين الجياد والعجلات إلى أن قفز الدوق فوق مقعد عربة السيد جارفيس محاولاً، بعد أخذ اللجام، السيطرة على الجوادين المذعورين، وكل منهما يشب على الآخر.

وعندما تمت السيطرة على الجياد، وفصل جوادي كل عربة عن جوادي الأخرى، صرخت جيونا وهي تمد يديها نحو الدوق.

فقال يخفف عنها: «لا بأس عليك.»

تمتمت: «لقد قتلته... قتلته... قتلته لأنه كان يريد أن يقتلك.»

«لقد أدركت ذلك.»

عند ذلك رآها موثوقة إلى مسند المقعد. لم يقل شيئاً وإنما فك الرباط، ثم سألها بهدوء: «هل أنت بخير؟»

أجابت بجهد: «أنا... بخير.»

فقال: «حاولي ألا يغمى عليك الآن إذ أمامي الكثير من العمل.»

www.rewayti.net

بدا ذلك منه قولاً غريباً بحيث نسيت لحظة نفسها وهي تراه يقفز من العربة متجهاً إلى هيبرت.

«ماذا سنفعل بكل هؤلاء؟»

ارتسمت على وجه هيبرت ابتسامة عريضة وقال وقد لمعت عيناه: «لن يستطيعوا عمل أي شيء الآن، يا سيدي.»

قال هذا ونظر إلى الأرض، فأدرك الدوق أنه أثناء الفوضى التي حدثت بعد اطلاق الرصاص، مرت عجلات العربة المكشوفة ليس فوق السيد جارفيس فقط، والذي كان ميتاً على كل حال من الرصاصة التي أطلقتها جيونا عليه، وإنما مرت كذلك فوق جايك.

نظر الدوق إلى الجثتين للحظات، ثم قال: «المسؤولون الوحيدون عن كل هذا ينبغي أن يكونوا قطاع الطرق.»

فقال هيبرت: «هذا بالضبط ما كنت أفكر فيه يا سيدي الدوق.»

نظر الدوق إلى الرجل الذي كان مانعاً بمسدسه هيبرت عن الحركة ثم سقط وما زال مسدسه بيده.

عند ذلك التقط المسدس الذي كان قد سقط من السيد جارفيس، ثم وضعه في يد جايك.

ثم وكأن هيبرت قد أدرك ما هو متوقع منه، عقد اللجام، ثم هبط من العربة.

حيث أنهما عملا معاً أثناء الحرب لمدة طويلة، كان يعلم أن سيده يكره المهمة التالية التي يبدو أن عليهما القيام بها لكي يخلفوا صورة مقنعة لمن سيكتشف الحادث، رغم مخالفتها للواقع.

وهكذا أمسك الدوق بلجام أحد جواديه، ولجام أحد جوادي العربة الأخرى بينما أخذ هيبرت يفرغ جيوب السيد جارفيس من محتوياتها، فأخذ ساعته من صداره، وخاتمه من اصبعه الصغير، والدبوس اللؤلؤي من ربطة عنقه.

ثم نظر إلى الدوق منتظراً أوامره.

فقال هذا: «دسها في حجر أرنب في الغابة.»

فتوارى هيبرت بين الاشجار بينما وقف الدوق ينظر إليه في الوقت الذي كانت جيونا تنظر إليه هو.

وعندما عاد هيبرت قال له الدوق: «كلما أسرعنا في مغادرة هذا المكان كلما كان ذلك أفضل، خوفاً من أن يمر البعض من هذا الطريق.»

«كنت أفكر في ذلك أنا أيضاً، يا سيدي.»

«علينا إذن ألا نضيع الوقت.»

ترك الدوق من يده لجام حصان عربة السيد جارفيس ثم تقدم إلى جيونا مادًا يديه لينزلها من تلك العربة ليساعدها في الصعود الى عربته هو إلى جانب مقعد القيادة.

وعندما قفز هيبرت إلى المقعد خلفهما، انطلقوا جميعاً في طريقهم، مبتعدين عن أولئك الرجال الثلاثة الملقون في الطريق.

صعدوا بالعربة مسافة قصيرة في الطريق دخل الدوق بعدها حقلاً، وإذ ساروا إلى الناحية الأخرى من الأشجار وجدوا أنفسهم مرة أخرى في الطريق المؤدية إلى منزل جدته.

عند ذلك فقط، ولأول مرة، قال وهو يرى جيونا تجلس

www.rewayti.net

بجانبه بضعف وقد منعها الارهاق من أن تفكر في أي شيء ما عدا أنه آمن وأنها لم يعد لديها ما يخيفها، قال يسألها مرة أخرى: «هل أنت بخير؟»

«لقد... نجوت.»

قال بهدوء: «الشكر هو لك. ولكنني سأتحدث معك عن هذا الأمر فيما بعد. أما الآن فمن المهم جداً أن تفعلي ما سأخبرك به بالضبط.»

حملقت فيه بدهشة، فتابع يقول: «يجب ألا يعلم أحد أننا، نحن الاثنان، كنا موجودين أثناء تلك الحادثة المأساوية.»

وأبطأ سير جواديه وهو يتابع قائلاً: «بعد فترة قصيرة سيخبروننا بأن قطاع الطرق قد أمسكوا بسيد كان قادماً لزيارتي في منزل ألفرستود ثم سلبوه وقتلوه بعد ذلك.»

سكت لحظة ثم عاد يقول ببطء: «سيبدو الأمر جريمة معقدة نوعاً ما، لأنه يبدو أن رجلاً ثالثاً قد فر هارباً بالغنيمة بعد أن تشاجر مع زميله.»

فشهقت جيونا وهي تقول بصوت مرتجف: «كان عمي جارفيس... يريد أن يظهر الأمر... وكأن قطاع الطرق... قتلوك.»

قال: «ولكنني حيّ الآن، يا جيونا. والآن هل فهمت أنت أنه من المفروض بأنك لا تعلمين شيئاً عما حدث؟»

فأومأت برأسها.

وعاد هو يقول: «أنا أعلم أنك، من الذكاء، بحيث تمثلين دوراً سيكون صعباً عليك ولكنه سينقذنا، أنت وأنا، من كثير من التحقيقات المرهقة.»

كان الدوق يرى أن لا شيء أسوأ من أن تتعرض جيونا للاشتباه في أنها كانت موجودة أثناء مقتل عمها، فكيف إذا علموا بأنها قتلته بيدها.

قال لها: «إنني أعتمد عليك. ولأنني واثق من مهارتك، فانني أريدك أن تنقذينا نحن الاثنان، وذلك بأداء دور بسيط لا شك سينتزع التصفيق من الجمهور لو كان ذلك على خشبة المسرح.»

«سوف... أحاول.»

فقال باسماً: «أنا أعرف أنك... ستحاولين. إن ما أريده منك هو أن تذهبي إلى البيت مشياً من هنا وتقولي بأن عمك أخذك إليه لفترة قصيرة فقط لكي يتحدث إليك على انفراد.»

«إن ذلك الرجل... الذي طرحته أرضاً... قد حملني من حيث كنت أقف... عند أسفل السلم، ثم أخرجني إلى... عربته المكشوفة.»

فسألها الدوق بحدة: «من رأى هذا المنظر؟»

«سمبسون فقط.»

«إذن أخبريه أن ذلك كان مزاحاً قد اعتاده عمك. يجب أن يكون حديثك مقنعاً سأراك فيما بعد وتذكري أن كل شيء يعتمد على أن تظهري وكأنه لم يحدث أي أمر سيء.»

أوقف العربة، فرأت جيونا أن بوابة المنزل هي على بعد حوالي عشرين ياردة فقط.

قالت بصوت بالغ الخفوت وكأنها تحدث نفسها متأملة: «إنك... سالم.»

أجابها بهدوء: «وكذلك أنت وإلى نهاية حياتك.»

www.rewayti.net

وتقابلت أعينهما، ولم تستطع تحويل نظراتها بعيداً ثم نزلت من العربة وأخذت تسير في الطريق المؤدية إلى البوابة.

ورأته يتحول بالعربة عائداً من نفس الطريق.

وأثناء سيرها، كانت هذه الكلمات تتجاوب في كيانها مع خفقان قلبها.

«إنه سالم... إنه سالم.»

الفصل السابع

قالت الدوقة وهي تخرج مع جيونا من غرفة الطعام: «أرى من الأفضل ان اصعد إلى غرفتي لأرتاح.»

أجابتها جيونا: «اظن هذا... عملاً حكيماً... يا سيدتي.»

قالت هذا بصوت متردد جعل من الدوقة تنظر إليها بحدة، وتقول: «ان شيئاً من الراحة يفيدك، فأنت تبدين بمثل الشحوب الذي كنت فيه أول مجيئك إلينا.»

أجابت جيونا: «اظن ذلك... من حرارة الجو، سأذهب إلى الحديقة... لأستنشق الهواء النقي.»

فقالت الدوقة: «نعم، اذهبي، وربما سيأتي حفيدي ليتناول الشاي معنا فيخبرنا عما أعاقه عن الحضور.»

لم تقل جيونا شيئاً، وعندما صعدت الدوقة السلم ببطء، تحولت هي وخرجت إلى الشرفة.

عندما عادت إلى منزل الدوقة، وجدت رئيس الخدم يتسكع في الردهة في حالة بالغة من الإضطراب.

سألها حالما دخلت: «ما الذي حدث، يا آنسة جيونا؟ لماذا حملك ذلك الرجل بمثل تلك الطريقة غير العادية؟ لقد كنت لا اعرف ماذا افعل.»

تمكنت، بجهد خارق، ان تقول: «كانت تلك مجرد مزحة من عمي، لقد أراد ان يفاجئني ونجح في ذلك، وبعد ان سرنا معاً مسافة قصيرة، قال لي ان بإمكاني العودة، انها نوع من المكائد التي يظنها مضحكة.»

www.rewayti.net

تلاشى القلق من عيني سمبسون العجوز، وهتف يقول: «اهذا كل شيء، يا آنسة؟ لقد كنت افكر خائفاً في أشياء كثيرة غريبة قد تكون حدثت لك، وكنت على وشك إرسال السائس للتفتيش عنك.»

أجابت: «لم يحدث لي أي شيء غريب سوى انني وسخت خفي، سأصعد إلى غرفتي لأغيرهما.»

وشعرت بالإرتياح عندما لم تجد أحداً في غرفتها إذ كانت الخادمة قد نظمتها وخرجت.

ولكنها ما لبثت ان حدثت نفسها بأن الدوق قد وضع ثقته فيها، ما جعل الوقت مبكراً للإنهيار، وان عليها تأدية دورها بمهارة كيلا يراود أي شخص ذرة واحدة من الإرتياب في أن شيئاً قد حدث.

ولكن مع مرور ساعات الصباح، كان كل تفكيرها منصباً على خجلها من انها قتلت رجلاً، رغم انها بذلك قد انقذت الدوق.

ولكن، هل أصبح آمناً من الفضيحة والأقاويل التي ستناله حتماً إذا حدث لسوء الحظ، وعلم احد بما حدث.

كانت تعلم تماماً نوع القصة التي سيؤلفها الثرثارين، في المجتمع، عن قتال الدوق للسيد جارفيس، وعن ان ابنته كانت تريد الزواج من لوسيان الذي رفض ان يطلب يدها. والأسوأ من ذلك كله، ان ابنة شقيق السيد جارفيس قد تورطت، بشكل ما، مع دوق الفرستود.

ماذا سيظن الناس، وماذا سيقولون، وماذا ستكتبه الصحف؟ كل هذا اخذ يلف في ذهن جيونا ويدور، إلى ان قررت ان الشيء الوحيد الذي يمكن ان يبدد مخاوفها التي كادت تصيبها بالجنون، هو ان ترى الدوق.

واخذت تعد الساعات إلى ان حان الوقت الممكن ان يأتي فيه.

أخذت تحسب في ذهنها كم من الوقت سيمضي كي يعثر شخص ما على ثلاثة جثث ملقاة على الطريق، وما اذا كان ذلك الشخص من مستخدمي الدوق، وهذا محتمل جداً، عند ذلك سيحمل الخبر إلى منزل الدوق اولاً قبل ان يحمله إلى مخفر الشرطة، حتى ولو حدث ذلك، فإن جيونا كانت واثقة من انه بإمكان الدوق ان يتخلص بشكل ما من كل الأفكار والمخاوف ويأتي لتناول طعام الغداء معهما.

كانت تنصت إلى اصوات عجلات قد تقف امام الباب، ولم تمنع إلا بجهد بالغ، نفسها، من الركض كل خمس دقائق، إلى النافذة، لكي ترى ما اذا كانت جياده قد برزت من أول طريق المنزل.

وعندما تصاعد في النهاية صوت وقع حوافر، لم يكن القادم سوى سائس يحمل رسالة إلى الدوقة.

قرأتها الدوقة، ثم ناولتها إلى جيونا.

اخذ خط الدوق القوي المستقيم يتأرجح لحظة امام عينيها، ثم قرأت: «سامحيني يا جدتي إذ لم اتمكن من الحضور لتناول طعام الغداء معك كما كنت أتمنى، ولكن اعاقني عن ذلك بعض الأعمال المملة، على كل حال، آمل ان اكون معك في وقت ما عصر هذا اليوم.»

حفيدك المحب ـ فاليران

بعض الأعمال المملة، رددت جيونا هذه الكلمات في ذهنها، آملة ألا يكون الدوق، بذلك، يحاول التلطيف من شأن أمر خطير قد حدث، والآن، وهي تسير بين ورود الحديقة تفكر في الدوق، اذا بفكرة مفاجئة تمر في ذهنها فتصعقها.

إذا لم يكن ثمة من صعوبات خطيرة قد نتجت عن موت

www.rewayti.net

السيد جارفيس، فليس الدوق فقط هو الذي سيكون آمناً، وإنما هي أيضاً، وهذا ما سيجعلها في غير حاجة إلى حمايته بعد الآن.

كانت من شدة الخوف من عمها، وتهديده الدائم لها منذ وقت طويل، ان جعلها تبدأ الآن فقط في الإدراك ببطء انها بعد موته، اصبحت فتاة حرة يمكنها الذهاب إلى أي مكان تشاء.

لو ان هذا الأمر حدث لها أثناء وجودها في بيت عمها، لشعرت وكأنها عصفور في قفص تمكنت فجأة من الطيران في الأجواء، ولكنها تعلم الآن ان حريتها تعني خسارتها الدوق.

كان قد اعتنى بها وساعدها عل الفرار وجاء بها إلى هنا لتكون آمنة فقط لأنه كان يشعر نحوها بالأسى. وكانت قد لاحظت أنه يشمئز من القسوة من أي نوع كانت، كانت واثقة من انها كامرأة لا تعني له شيئاً، وانما شعوره بالعدالة وحنانه هما اللذان دفعاه إلى انقاذها من الإذلال والموت.

وبدلاً من شعورها بالسعادة بالنسبة لمستقبلها لم تستطع ان ترى فيه سوى الوحشة والفراغ.

سيكون لديها المال، لأن الدوق سيساعدها في الحصول على إرثها من والدها، وبعد ذلك سيعود إلى اصدقائه، ورياضاته، والى مسؤوليات مركزه المرموق، بينما تبقى هي وحدها مع قلبها المحطم.

لقد عرفت بنجاحه بين الناس من الدوقة التي كانت تحب الحديث عن فضائح الطبقة الراقية.

اما تعليقاتها عما تكتبه صحيفتا التايمس والمورننغ بوست في ابوابها الاجتماعية فكثيراً ما كانت تسدد طعنات

ألم غريبة إلى قلبها، رغم ان جيونا لم تكن تدرك، في البداية سبب شعورها بالتعاسة هذا.

فقد كانت قد قالت أمس، معلقة على خبر قرأته في الصحيفة: «أرى ان السيدة ماري كروسن هي في قصر باكنغهام هذا الأسبوع، انها دوماً امرأة متعبة في رأيي، ولكنها جميلة جداً. اظنني افهم سبب انجذاب فاليريان إليها رغم ان اهتمامه بها لم يدم طويلاً.»

وأيضاً باب الخطوبات، كانت دوماً مصدراً لتعليقاتها فقد هتفت ذات صباح: «وهكذا عقدت اخيراً خطوبة ابنة دوق نروتمبرلاند؟ كنت اظنها مازالت ترتدي الحداد على فاليريان، كان يمكن ان تكون زوجة مناسبة جداً له، ولكنها لم تعجبه.»

ودون وعي منها إلى أين كانت تسير، وجدت نفسها قد وصلت إلى عريشة الورود فجلست على المقعد.

وحاولت ان تتجلد إزاء ما كانت واثقة من انها ستسمعه من الدوق حين يصل أخيراً.

وتساءلت عما جعله يتأخر كل هذا الوقت؟

ربما ساور ضابط الشرطة الشك في ان المشهد الذي كانوا قد رتبوه بحيث يوحي بأن ثمة شجاراً حدث بين قطاع الطرق، غير حقيقي. فإذا ارتاب في ان الدوق هو قاتل عمها، عليها إذن ان تتقدم لجلاء الحقيقة.

كانت واثقة من ان الدوق سيحاول في البداية، تحمل مسؤولية ذلك، ولكن هذا شيء لم تكن لتوافق على القيام به.

عند التحقيق، كل القصة القذرة ستنكشف، حكاية قسوة عمها نحوها ستصبح منتشرة، ولن تتمكن بعد ذلك من رفع رأسها بين الناس.

www.rewayti.net

ومن ناحية أخرى، اذا سار كل شيء حسب ما خطط له الدوق، عند ذلك سيقول لها الوداع، وربما يدعوها إلى البقاء فترة اطول مع جدته، ولكن من غير الممكن ان توافق هي بالبقاء ضيفة دون دعوة وإلى الأبد، بينما في الواقع، عليها ان تبدأ منذ اليوم، بالتخطيط بمستقبلها.

قد يكون عليها ان تستأجر منزلاً في لندن، ثم أن توظف امرأة محترمة حسنة أو أرملة لتكون مرافقة لها، أو ربما من الأفضل ان تغادر انكلترا إلى حيث تعود إلى حياة الأسفار المضطربة إلى أي بقعة في العالم لا يوجد فيها حرب.

ستعيش وحيدة، وحيدة كلياً، فهي تعلم ان ليس ثمة رجل يمكن ان يجذب، اهتمامها بعد الدوق، لقد منحت حبها مرة، ولم يعد ملكها لكي تعطيه لرجل آخر.

كانت تريد البكاء لتفكيرها التعس هذا، ولكنها ما لبثت ان حدثت نفسها بأنه إذا رآها الدوق باكية فسيحتقرها لعدم تنفيذها أوامره بكفاءة اكثر.

وكان قد سبق لجدته ان اشتبهت بحدوث شيء ازعجها وذلك لشحوبها الشديد، وقد لا يكون سمبسون قد صدق قصتها عما حدث، وصور لها حزنها ذاك وانزعاجها، بأنه ينذر بالشؤم والمخاوف والمتاعب.

شعرت بالمشاكل والتساؤلات تكتنفها من كل صوب، وشعرت أيضاً برغبة في الصراخ، وذلك في اللحظة التي رفعت فيها رأسها لترى الدوق واقفاً بقربها.

لقد كان قد اقترب منها دون ان تسمع صوت وقع اقدامه، وكان الآن واقفاً داخل العريشة، رغم انها ظنت لأول وهلة، انه ليس سوى تصورات من مخيلتها.

شعرت بقلبها يكف عن الخفقان وهي تهب واقفة لتندفع نحوه صارخة: «ماذا حدث؟ لماذا تأخرت... بهذا الشكل؟ هل حدث شيء... سيء؟»

كانت الاسئلة تتدفق من بين شفتيها متفككة دون ان تتمكن من السيطرة عليها.

وتمسكت به كيلا يهرب منها ويتركها دون إجابة.

قال الدوق يخفف عنها: «كل شيء على ما يرام، انني آسف لتأخري في القدوم اليك، ولكن كان هناك أموراً لا يمكن تجنبها.»

وجعلها صوته الهادىء تنظر إليه مستطلعة، وهي تسأله: «هل... صدقوا؟ هل اقتنعوا بأن... قطاع الطرق هم الذين... قتلوا عمي جارفيس؟»

كانت تبدو من عدم الاتزان والحماس بحيث وضع الدوق يده على كتفها مهدئاً وهو يقول: «ان الشرطة تفتش الآن عن القاتل، رغم اعترافهم بأن املهم قليل في القبض عليه، إذ ليس لديهم ادنى فكرة عن شكله.»

كان يتكلم بابتسامة خفيفة، ثم قال بهدوء: «لا حاجة بك للقلق بعد الآن، لقد انقذت حياتي، يا جيونا.»

وشعر بها ترتجف وكأنها تذكرت تلك اللحظة التي ظنت فيها انه على وشك الموت، وما زال ذلك الموقف مصدر رعب هائل يعذبها.

فأضاف: «انسي كل هذا، وبدلاً من ذلك دعيني اشكرك، ان الامتنان يملأني حقاً لوجودي معك هنا.»

جعلتها لهجته تنظر إليه متعجبة، ولكن دون أي من مخاوفها السابقة.

www.rewayti.net

وعاد يقول برقة زائدة: «كنت اتساءل وانا في طريقي إلى هنا، عن الطريقة التي يمكنني ان اعبر فيها عن سعادتي بكوني مازلت حياً.»

وامسك بكتفيها بيديه الاثنتين وهو يحني رأسه لينظر طويلاً في عينيها المرتفعتين نحوه بدهشة وعجب.

أدرك ان شعوره نحوها يختلف عن أي شعور آخر عرفه من قبل، ولكنه لا يستطيع التعبير عنه بالكلمات.

كل ما يعرفه هو ان كل شيء في جيونا كان مختلفاً عن كل النساء اللاتي اجتذبته واثرن فضوله قبلها، ثم سرعان ما كان يشعر بالسأم.

والآن وهو يرى في عينيها نفس مشاعر الحب التي تعتمل في نفسه نحوها، أدرك حيث انها تثق به كلياً، عليه ان يحاول العيش تبعاً لفكرتها هذه عنه.

ولمع في ذهنه ان هناك أموراً كثيرة جداً يمكنهما القيام بها معاً لكي يمنعا الآخرين، امثال السيد جارفيس، من القسوة على اولئك الذين يمنعهم ضعفهم من الدفاع عن أنفسهم.

رغم ان تجارة العبيد قد منعت بقرار من البرلمان، منذ اثني عشرة عاماً، فما زالت العبودية موجودة في الكثير من دروب الحياة، والتي وان كانت تحمل اسماء مختلفة، ما زالت تتمثل في الاستغلال البالغ الأنانية والتحقير المزري بالضعيف.

ثم تمتمت جيونا تقول: «احبك...»

وعندما سمع الدوق نبراتها المتهدجة وهي تقول ذلك، وافصحت له نظراتها عن مكنون شعورها نحوه، أدرك انه اسعد رجل في العالم.

أجاب: «وانا احبك أيضاً، يا غاليتي. ولن يخيفك احد أو يسيء معاملتك بعد الآن.»

شعت السعادة في اسارير وجهها بينما عاد هو يقول: «انني ساعتني بك، والآن لم يعد هناك ما يمنعنا من الزواج في أسرع وقت ممكن.»

«الز... الزواج؟»

أجاب: «لم يعد هناك من يتوجب منا بطلب ترخيص بالزواج منه، والوصي الوحيد عليك بعد الآن، يا جميلتي، سيكون زوجك، والذي هو انا.»

فهمست تقول: «هل... هل تسألني... حقاً الزواج منك؟»

أجاب: «انني لا اسألك، في الحقيقة، لأنني لن اسمح لك بأن تقولي لا، انا احبك يا حبيبتي، ومن الصعب ان اخبرك إلى أي حد.»

فقالت: «وأنا احبك اكثر من حياتي، لا شيء مهم في الدنيا، بالنسبة إليّ سواك، ولكن... عليك ان تتزوج من فتاة... اهم مني... بكثير.»

فقال بحزم: «بل أريد الزواج منك، والشخص الذي سيوافقني على اختياري هذا، والذي يهمني اكثر من جميع أقاربي هي جدتي.»

فسألته: «وهل أنت واثق... واثق تماماً من ذلك؟»

أجاب: «واثق جداً، ولكن الحقيقة ان لا أهمية لما تفكر فيه جدتي أو أي شخص آخر، إنني احبك وهذا كل ما يهمني.»

فصرخت: «وما يهمني انا، ولكن هل انت واثق... من كل قلبك، من انك تريدني... إلى الأبد؟»

فقال بحزم: «إلى آخر الدهر. آه يا حبيبتي، ألا تدركين كم انت حلوة رائعة الجمال؟»

www.rewayti.net

فرفعت إليه وجهها، ونظر هو إليها وفي عينيه معنى جعل قلب جيونا يقفز بين ضلوعها.

كانت النظرة التي طالما تمنت رؤيتها، وهي تعلم الآن، رغم ان هذا شيء لا يصدق، تعلم ان الدوق يحبها كما تحبه.

ان الدوق هو الذي بدد ظلمة حياتها وتعاستها بالنور والأمل حين لم يكن امامها سوى الآلام وترقب الموت.

كأن الدوق أدرك ما كانت تفكر فيه، قال: «لن اسمح يا حبيبتي، وهذا وعد مني، للشقاء والخوف بأن يتسللا إلى حياتك مرة أخرى، انك لن تشعري بعد الآن، بالألم والوحدة ابداً.»

«من أين تأتي بهذه الكلمات الرائعة التي تحدثني بها؟»

«هذا قول سهل لأنك أروع شيء صادفته في حياتي.»

فقالت بحرارة: «هذا ما عليّ انا ان اقوله لك، لقد جئت إليّ... عندما كنت في... مهاوي اليأس... وأنا اريد الآن ان... هو ان... اقدم اليك شكري.»

اطلق ضحكة قصيرة وقال: «لا اريدك ان تقدمي لي الشكر، يا جميلتي، ولكن ما أريده منك هو ان تفيضي عليّ حبك كله لأنه اغلى شيء عرفته، وأنا أريده وبحاجة إليه، انني احبك يا غالية، ولكن ليس بإمكاني ان اريك إلى أي حد، إلا بعد ان تصبحي زوجتي.»

فهمست: «انك تبعث في نفسي... مشاعر غريبة.»

فسألها: «وماذا تشبه هذه المشاعر؟»

«انها أشبه... اشبه بخيط من شعاع الشمس.»

ابتسم قائلاً: «كم انت حلوة وبريئة، يا حبيبتي.»

«اتراك تضحك مني... لأنني جاهلة؟»

«بل أنا أحب فيك براءتك هذه والتي لم اكن اتصور وجودها.»

سكت لحظة ثم تابع يقول: «أريد ان اسألك مرة أخرى، متى سنتزوج؟»

فهتفت برقة: «الآن... في هذه اللحظة.»

«هذا ما أريد ان اسمعه منك. والآن، دعينا نذهب لنتكلم مع الجدة، لأن ذلك سيشفي ما تعانيه من الروماتيزم، وستعود عشرين سنة إلى الوراء إذا نحن تزوجنا هنا في بيتها فتقوم هي، بالترتيبات لذلك.»

«هذا إذا وافقت.. على انني... مناسبة لك.»

«اظن كان لديها فكرة بانك ستتزوجين من لوسيان.»

«لوسيان؟ ولكن ما هذه السخافة، انه مجرد غلام.»

«وأنا أيضاً كنت خائفاً قليلاً من ان تريني كبير السن بالنسبة إليك.»

«انني أراك رجلاً كاملاً... أروع رجل في الوجود، وعندما يكون هناك حب، لا يعود للسن أية اهمية في رأيي.»

فقال: «هذا صحيح، وعندما نصبح معاً يا حبيبتي الغالية، سنكون من نفس العمر لأن تفكيرنا سيكون واحداً، وكذلك مشاعرنا، وفي المستقبل سيجعلنا الحب متماثلين اكثر واكثر...»

فصرخت: «هذا صحيح... انا واثقة من ذلك... ولكن... هل يكفي حبي؟»

وتاهت نظراتها بعيداً عنه قبل ان تقول بصوت خافت: «انك تعلم انني... جاهلة جداً بكل ما يهمك... في انكلترا... ولأنني لم اعش في هذه البلاد ابداً... فسأقترف الكثير من الأخطاء... ما قد يجعلك تخجل مني.»

www.rewayti.net

فابتسم الدوق: «انك تهينينني اذ تعنين انني ضيق الأفق، ولكنني أرى اننا نتفق بأمور عديدة، وعلى كل حال، ماذا يهم ما يحدث في لندن إذا كنا نلمس قمة جبال هملايا، أو نبحر في البحر الأحمر؟»

وقالت: «انه دوماً... كلامك الجميل... هذا.»

قال: «انني، في الحقيقة، مدهوش قليلاً من نفسي، فأنا لا املك عادة، تصورات شاعرية.»

رفعت عينيها إليه، ورأى هو فيهما ما تفكر فيه، فقال برقة: «معك حق، الحب هو الذي غيرني، يا حبيبتي الغالية ذات الأنف اليوناني، الحب هو الذي جعل مشاعري مختلفة عما كانت عليه فيما مضى، ولن أدهش أبداً، بعد الآن، من أي شيء اقوله أو افكر به أو افعله.»

فتمتمت تقول: «هكذا هو حبي... لك، فقط لأنني أريد... ان أبقى معك... وان تعلمني... دعنا نتزوج بسرعة... أرجوك.»

«هذا من جملة الأشياء التي نحن متفقان عليها تماماً.»

ثم سارا معاً باتجاه المنزل، بينما أشعة الشمس المشرقة تغمر الكون.

انه خيط من شعاعها ذاك الذي ضم جيونا والدوق معاً، رابطاً ما بينهما حتى آخر العمر.

تـــمـــت

www.rewayti.net